

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة النبات
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
15


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٥

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة النبات

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

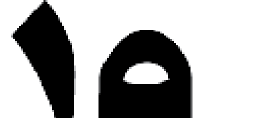
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٠،١٦ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسى مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة





بقلم :

د. أحمد خالد توفيق



مقدمة

س - ما اسمك؟

ج - د. (رفعت إسماعيل).

س - سنك وعملك؟

ج- أقترب من السبعين من العمر، أستاذ طب متقاعد وطارد أشباح هاو..

س - حالتك الاجتماعية؟

ج - أعزب بالطبع.. فلا توجد زوجة تتحمل حياتي، وحتى لو وجدت.. فقد رحل القطار مبتعدًا عن محطتي منذ أعوام..

س - ومتى تكف عن سرد القصص الكابوسية؟

ج - حين يحين أجلي..

س - وعم ستحدثنا اليوم؟
ج - كنت أنوي أن أستكمل قصة (النافاراي) أو أحكي حلقة أخرى من رحلات (سالم وسلمى) أو أثرثر عن (نوسفيراتو).. ثم وجدت أنني راغب في سرد قصتي مع نبات الـ (موكاسا)، فهي قصة لا بأس بها..
س - لماذا اخترتها بالذات؟
ج - لأنني كنت - في المغامرة السابقة - مع رجل الثلوج في (التبت).. ولهذا آثرت أن أحكي قصة بيئية دافئة بعيدًا عن الثلوج وانهيارات الجبال..
س - متى حدثت هذه القصة؟
ج- لا أذكر.. ربما كان ذلك في عام ١٩٦٨ وربما لا.. بالتأكيد كنت قد جاوزت الأربعين، وبالتأكيد لم أكن مرتبطًا بـ

(هويدا).. إذن هي حدثت قبل لقائي مع الفرعون (أخيروم) أو بعد لقائي مع رجل الثلوج..
س - ألا تحتفظ بمذكرات؟
ج - ولماذا أفعل؟.. إن كل ذكرياتي من الطراز الذي لا ينسى.. ويظل محفورًا - كالنقوش - في تعاريج الدماغ.. ولطالما حاولت أن أنسى.. لكن الذكريات الباسمة فقط هي التي تمحي..!...
س - هل لديك أقوال أخرى؟
ج - نعم.. لا تنسوا يا رفاق أن تغلقوا الأبواب وتضيئوا الأنوار.. إن العجوز (رفعت إسماعيل) سيسرد قصة شنيعة هذه الليلة.. سأحكي لكم كل شيء ولكن لا أسئلة.. أرجوكم.. حتى أنتهي..

١ - الموهوب..

أبدًا لن يكف (عماد صبحي) عن إثارة دهشتي..
وحين أسترجع شريط ذكرياتي أجد وجهه في لقطات عديدة.. دائمًا تحوطه هالة من الإعجاب والانبهار..
ما الذي كان ينقص هذا الفتى كي يكون سعيدًا؟..
كان وسيمًا.. وسيمًا كصور الأبطال الإغريق التي ترسمها الأساطير، فارع القامة أميل للسمرة.. تتطاير خصلات شعره فاحم السواد لتداعب جبينه الوضاء في افتتان..

. وكان قويًا كالمصارعين الرومان..
وكان أنيقًا كواحد من الموديلات المجسمة التي نراها في نوافذ المحلات.. وبالتالي كان يناسبه كل شيء وكل زيّ كأنما خلق له..

دعابته حاضرة كأفضل ما يكون.. ولسانه - الشبيه بالسوط - يبرز ليلسع كل ما يروق له أو يراه سخيفًا، والمعجزة هنا هي أنك تنفجر ضاحكًا معه حتى ولو كان يتهكم عليك، لأن أصالة دعاباته وطرافتها كانت تذيب حاجز الكبرياء الشخصية فترى نفسك مجردًا كما خلقك الله.. وتدرك مدى سخفك أو غبائك..

لقد كان طرازًا نادرًا من البشر..

عازف كمان من الطراز الأول.. وقارئ كتب من الطراز الأول أو كما قال عن نفسه:

- أنا قارئ محترف.. ولابد أن أحد أجدادي كان (عثة) كتب...

وكان على قدر لا بأس به من الثراء.. الثراء الذي لا يثير حسدًا ولا ضغينة لدى زملائه المعدمين من أمثالنا.. وكان كريمًا كالأمطار حتى أنني أسائل نفسي عن تصرفه لو أنني طلبت عينيه بشيء من الإلحاح!..

كان هذا هو (عماد صبحي)..

فهل لديك سبب يفسر ألا يكون هذا الكائن الأسطوري سعيدًا؟

* * *

عرفته في السنة الأولى لي في الجامعة..

وكنت أنا أدرس الطب.. وكان هو يدرس العلوم البيولوجية.. وبالتالي كان لقاؤنا الأول في أحد معامل (البيولوجي) غارقين في التعاسة محاولين العثور على الوريد البوابي لضفدعة مصلوبة في طبق شمعي.. وكانت الدماء تتسرب من مكان ما لتنتشر فوق سطح الماء فتستحيل الرؤية..

قال لي في قنوط متأملًا المشهد:

- لا جدوى.. جراحة فاشلة.. لقد ماتت (المرحومة) بعد ما ثقبنا (الأورطي)..

ثم وضع المبضع والجفت جانبًا ونهض هاتفًا:

- سأدعوك إلى ضفدعة أخرى على حسابي.. ولكن لنكن حذرين هذه المرة..

وبعد دقائق عاد بضفدعة مكتنزة اشتراها.. وبدأ يحاول تخديرها بالكحول ثم ثبتها بالدبابيس في الطبق إلى جوار جثة (المرحومة) السابقة.. وقال:

- (عماد صبحى).. السنة الأولى بكلية العلوم...

- (رفعت إسماعيل)... السنة الإعدادية بكلية الطب.

- قاهري؟

- بل من (الشرقية) أساسًا.. ثم أنني نزحت إلى (المنصورة) وأعيش هناك..

ثم إنني ابتسمت في حرج.. وأردفت:.

- إنني قروي ساذج إذا كان يناسبك هذا النوع من التعبيرات..

- كلنا ذلك الرجل..

وبدأ في صبر يقص عضلات البطن بطرف المقص، كان دقيقًا في عمله وكأنه جراح محترف.. وبثقة ربط الوريد البوابي بقطعتي خيط ثم أدخل يد المبضع تحته ليغدو الوريد واضحًا للعيان.. وأردف:

- هو ذا الوريد..! والآن..

ثم اكفهر وجهه وهو يرمق البقعة الحمراء التي بدأت تنتشر فوق سطح الماء قادمة من أسفل الطبق كبقعة زيت قادمة من خط أنابيب نفط دمره طوربيد..، وأدركنا أننا فشلنا.. فتبادلنا الابتسامات الساخرة..

وتركنا مسرح الجريمة عالمين أننا - على الأقل - غدونا صديقين..

* * *

وتوطدت العلاقة بيننا..

عرفت كل شيء عن أصدقائه.. أسرته.. هواياته..، وعرفت أنه إنسان نادر..، لا يوجد إنسان بلا عيوب.. لكن عيوب (عماد) كانت خافية عن عيني أو هي - على الأقل - خافتة جدًا...

تجادلنا كثيرًا في السياسة والأدب.. وعما إذا كان (العقاد) مغرورًا أم عبقريًا.. وما إذا كان الإنجليز سيرحلون عنوة أو طواعية.. وما إذا كانت (فاتن) هي أجمل

فتاة رأيناها في حياتنا أم هي - فقط - واحدة من أجملهن..

ولما كنا قد نشأنا في بيئات منغلقة فإننا حاولنا أن (نركب) عواطفنا على أول فتاة تصلح لأن نحبها، دون اقتناع حقيقي من جانبنا، ودون أدنى تشجيع من جانبها..

وطفقنا نقرض الشعر - كالفئران - ونكتب مئات القصائد عن كيف تضحك (فاتن) وكيف تقطب وكيف تمشي وكيف تجلس وكيف تأكل ساندوتشات (الطعمية) الساخنة..، وفي صباح اليوم التالي نلتقي أنا وهو ونتبادل قراءة القصائد.. تلك القراءة التي ندرك بعدها أننا خلقنا للعلم وليس الأدب.. ونمزق ما كتبناه ونضحك!..

أواه من لذعة الذكريات الحبيبة!..

كانت (فاتن) زميلتي في الكلية.. وكان عدد الفتيات محدودًا في دفعتي، وكان (عماد) يجيء ليتبادل معي الآراء المتمردة.. فكان يراها.. ولم أحاول منعه من المجيء لأن حبي لها كان باهتًا يحتاج إلى صراع.. إلى تبادل آراء مع شخص آخر يعاني ذات الألم.. وكان (عماد) مناسبًا لأن يكون هذا الشخص..

معه بدأ هذا الحب يتخذ طولًا وعرضًا وارتفاعًا، وأضفى عليه عنصر المنافسة كل ما يلزم كي يصير حبًا حقيقًا كالذي نسمع عنه..

❋ ❋ ❋

وفي مكتبة الكلية وقفت أنا وهو نقلب مجموعة من الكتب الثقافية بحثًا عن شيء لم نقرأه.. وكان هو يردد في عصبية:
- كتب.. كتب.. كتب.. متى وجدوا الوقت ليكتبوا كل هذا إذا كان القارئ لا يجد وقتًا ليقرأ كل هذا؟..
وفجأة لكزته بكوعي منبهًا..
كانت (فاتن) وإحدى صديقاتها واقفتين تقلبان صفحات كتاب سميك على بعد بضعة أمتار منا..
همس لي في حزم وهو يعيد الكتاب الذي في يده إلى الرف:
- هلم اتبعني!..
وتقدم نحوهما في حين سرت خلفه محاولًا منع نفسي من الفرار كالأرانب..

ووقف أمام (فاتن) عاقدًا ذراعيه على صدره.. وهتف في ثقة:

- أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا!

تبادلت هي وصديقتها نظرة حيرى، ثم رفعت الكتاب لترينا غلافه.. وكان مجموعة أشعار (إبن الفارض).. فتنهد (عماد) وبدأ يثرثر عن قيمة الشعر في حياتنا وهل التراث هو الأهم أم التجديد.. و.. و.......

لاحظت - في هلع - أنه لم يعد لي أي دور في هذه المحادثة وأن الفتاتين قد رفعتا رأسيهما الصغيرين ليصلا إلى مستوى هذا العملاق، وقد بدا عليهما أنهما ترشفان كلامه رشفًا..

تنحنحت.. قلت ملحوظة ما ثلاث مرات لكن أحدًا لم يصغ لي..، ونظرت إلى (عماد) فوجدته وسيمًا.. وسيمًا إلى حد لا يصدق.. إلى حد يثير الغيظ، أما أنا فكنت نحيلًا كالقلم الرصاص هزيلًا كالعنكبوت فقيرًا كـ (إبن دانيال).. وكان الصلع - حتى في هذا السن المبكر - يتحسس مقدمة رأسي في حذر..

قررت أن أنسحب.. ألقيت كلمة اعتذار مهذبة لكن أحدًا لم يهتم بالرد عليها..

لقد عرفت فتيات كثيرات بعد ذلك، وتعلمت أنني من الممكن أن أكون محبوبًا وأن تنبهر بي إحداهن، لكن مرارة هذا الموقف ستظل في حلقي - بعد خمسين عامًا تقريبًا - وسأحملها معي إلى القبر..

وفي اليوم التالي قابلت (عماد)..
وكما هو متوقع لم أستطع أن أخفي نوعًا من الفتور تجاهه باعتباره ذلك الذي نال كل شيء في الحياة دون أدنى جهد من جانبه..
سألني في مرح وهو يناولني لفافة تبغ (كان هذا هو العام الذي بدأت فيه التدخين للأسف):
- لماذا انصرفت بهذا الأسلوب أمس؟
قلت في اقتضاب:
- لأنني لا أحب (إبن الفارض)!..
- على كل حال لم يفتك الكثير.. لقد كانت (فاتن) هذه تافهة كالخنفسة وهي عاجزة حتى عن فهم لماذا تحب الشعر.. إنها تقرأ

الشعر لأن الفتيات الحالمات جميعهن يقرأن الشعر!

ثم ربت على كتفي وأجلسني على السور الحجري الذي يحيط بالحديقة.. وسألني في حذر:

- اسمعني يا (رفعت).. هل سبب ضيقك هو ما أظنه؟

- أنا لا أعرف ما تظنه..

- إذن.. أصغ لي.. إن الرجل الذي يتخلى عن صديقه من أجل امرأة ليس رجلًا.. فالصداقة خالدة وثمينة جدًا ومن القسوة أن نخدشها بهذه الترهات.. ثم إنني لا أهتم بها شعرة وأقسم على هذا.. إنها حالة من التقمص حاولت وضع نفسي فيها وفشلت..

نظرت في عينيه.. ونفثت دخان التبغ متسائلًا:

- إذن.. بم تهتم؟!

نظر في شرود إلى بعيد.. عيناه ترحلان إلى عوالم أخرى لا أراها.. وهمس:

- لا أدري بالضبط.. إنني ظامئ إلى شيء لا أدري عنه شيئًا!.. أريد أن أعرف أكثر وأن أصل إلى الحقيقة.. صدقني يا (رفعت).. لست سعيدًا على الإطلاق رغم كل التدليل الذي تمنحني إياه الحياة.. لا يمكن لإنسان أن يحظى بالسعادة مع روح قلقة متمردة كالتي أملكها..

كانت هذه هي أهم عبارة قالها لي في حياته.. وعلى ضوئها أمكنني تفسير كل ما حدث له فيما بعد، ولهذا السبب أذكرها

وأذكر النبرة التي قالها بها بعد كل هذه الأعوام...

وهنا قطع حديثنا صوت أنثوي مرح يهتف:

- لقد قرأت الكتاب الذي طلبت مني قراءته أمس!

كانت هذه (فاتن) وقد تغلبت على تحفظها الطبيعي لتأتي إلى حيث جلسنا ملوحة بكتاب ما في وجه (عماد) وكأنها تريد استكمال محادثة الأمس... نظر لي (عماد) نظرة ذات معنى وألقى لفافة التبغ بعيدًا.. ونهض متثاقلًا ليسير معها يتحدثان عن هذا الكتاب..

للمرة الأولى أدركت أنه يمثل دورًا اجتماعيًا لا يريده لمجرد أن يرضيها..

لسان حاله يقول:
تذكر.. إنها حالة من التقمص.. لا أكثر..

* * *

ومرت أعوام الدراسة..
وتخرج هو قبلي بطبيعة الحال وتم تعيينه في قسم النبات بالكلية أما أنا فكانت ثلاثة أعوام قاسية تنتظرني مع سنة تدريب وسنة عمل بالريف قبل أن أغدو طبيبًا مقيمًا للأمراض الباطنية بكلية الطب جامعة (.......)..
لم تمت صداقتنا.. لكنها خبت كالنيران في قطعة من الفحم.. ذهب وهجها لكنها مازالت هناك تمنح الدفء والضوء إلى حد

ما، ولا ينقصها سوى بعض أنسام الهواء كي تبعث ثانية..

كان متميزًا في مجال تخصصه.. عرفت هذا وسمعت عنه الكثير من زملائه وطلبته..

ثم رشحته الدولة لنيل درجة الدكتوراه من (انجلترا) فسافر إلى هناك بضعة أعوام، وعاد إلى وطنه دكتورًا في علم (النبات).. لكنني لم ألقه منذ عودته لانشغالي في درجة (ماجستير) أمراض الدم..

كنا شابين ناجحين.. وكان المستقبل ينتظرنا.. وكل شيء يبشر بغد باسم مزدهر بالسعادة..

لكن الأمور لا تؤخذ بهذه البساطة... ولو أنك دنوت من لوحة زيتية جميلة لرأيت

شقوق الزيت وتجعدات القماش، القبح الذي لا تراه حين تبتعد عن اللوحة..

كذلك البشر.. لو أنك سمعت عنهم من بعيد لسمعت أشياء رائعة.. ولتمنيت لو أنك كنت أحدهم..، أما لو دنوت منهم فسترى عجبًا..

متى دنوت من (عماد) لأرى شقوق الزيت على وجهه؟

كان ذلك عام ١٩٥٥

ولهذا قصة عجيبة سأحكيها لك في الفصل القادم..

❋ ❋ ❋

٢ - موكاسا نيجرا!..

جذبت فرملة اليد في اللحظة الأخيرة فمنعت الحادث المروع..

لماذا لم تستجب الفرملة تحت قدمي؟.. لا أدري بالضبط.. أن أشياء غريبة تحدث لي هذه الأيام.. ولعل حداثة عهدي بالقيادة لها دور ما في كل هذا..

المهم أنني نزلت لأتلقى إهانات - أو على الأقل توبيخات - سائق السيارة (الأول) التي كدت أحطم مقدمتها، فوجدته هو.. هو (عماد) بشحمه ولحمه ووسامته..

صحيح أن السنين لم تترك مفرقيه وشأنهما، وصحيح أن تجاعيد دقيقة وجدت

طريقها إلى ما تحت عينيه وحول فيه لكنه لم يتبدل كثيرًا.. وكان يضحك مما أكد لي أنه تعرف علي بذات الكيفية رغم أننا لم نلتق منذ خمسة أعوام..

- (رفعت)!.. أرى أنك ازددت قبحًا وخبالًا!

- وأنت ازددت وقاحة!

وتعانقنا.. وبدأنا نتبادل المعلومات عن الشلة.. (عادل) أصبح نقيبًا ونزح إلى (الإسكندرية).. كان دائمًا محظوظًا وسيظل.. لقد تزوج!.. تصور هذا المخبول فعلها وازداد عدد المعتوهين واحدًا.. بل اثنين لأن (ممدوح) فعلها هو الآخر بمجرد أن استلم عمله في البنك.. أما (عزت) فترك (سميرة) بعد خطبة طالت.. كذا

قصص الحب دائمًا تنتهي نهاية مؤسية.. إما الفراق وإما الزواج!.. للأسف لم يمت أحد.. لكن (محمود) مريض جدًا.. من الواضح أنه سرطان الدم.. يا للبائس!.. لماذا لم يخبرني بذلك وأنا متخصص في أمراض الدم؟.. لأنك حمار يا عزيزي (رفعت)!.. من المستحيل أن نثق في أصدقاء صبانا وأن نسلمهم حياتنا مهما بلغوا من مناصب عليا.. لقد كنت تخطف منه (الفيشار) فكيف تريده أن يأتمنك على خلايا دمه؟!..

ضحكنا كثيرًا جدًا.. وذاب الزمان والمكان ولم تبق سوى اللحظة..

وأقسم أغلظ القسم على أن أذهب معه إلى داره لتناول طعام الغداء، وازداد تشبثًا لما

علم أنني لا أملك عيادة خاصة..
وهكذا.. لم أر مفرًا من الذهاب معه لأنني لم أكن أملك مواعيد لألغيها..
كما أنني كنت - بالواقع - راغبًا في العودة إلى النهر القديم..
كان يعيش في (الزمالك) وحيدًا...
فيللا أنيقة حديثة الطراز من طابق واحد - كان (عماد) ميسور الحال كما قلت لك - يجلس على بوابتها بواب نوبي عجوز، ويمرح في حديقتها كلب من طراز (البلاك جاكت) لم يمنعه من افتراسي حيًا سوى زجر (عماد) له أنه من الخطأ افتراس الضيوف.
كانت الحديقة هائلة..

وهائلة هي الصفة الوحيدة التي يمكن بها أن تنعت هذا الدغل من الأشجار العملاقة الملتفة التي وصل بعضها إلى أحجام جديرة بأفلام الخيال العلمي..، وحتى نبات (الفيكس) البائس الذي تحول في شقتي إلى حزمة من الفجل بدا عنده كوحش أسطوري قادم من غابات (الأمازون)..

وكانت هناك صوبة زجاجية يصل طولها إلى ثمانية أمتار تتبدى خلف زجاجها المغطى ببخار الماء أوراق هائلة الحجم لنباتات أذكر منها شكلها دون أسمائها..

قلت في شيء من الذهول:

- إنك تجيد مهنتك حقًّا!..

ضحك متهكمًا وهز كتفيه:

- لم أتخرج في كلية الزراعة فلا دور لدراستي إذن في هذا النماء.. إنه نموذج لما يمكن أن يقدمه علم خواص التربة..

- كنت أظن تخصصك هو النبات..

- طبعًا.. لكن علم النبات ليس هو العلم الذي يخبرك بالضرورة بأفضل الطرق لزراعة حديقتك..



قلت فى شىء من الذهول :

ـــ إنك تجيد مهنتك حقًا !

ودخلنا إلى الفيللا الأنيقة التي ينطق كل ركن فيها بذوق سليم..

شيء مستفز!.. ولا قطعة أثاث في غير موضعها.. ولا تشكيل لوني واحد غير متناسق مع ما حوله.. أما الأسوأ فهو أن كل هذا كان يضوع بطابع البساطة المحببة.. بلا تكلف ولا جهد..

واتجه (عماد) إلى ركن القاعة وانتقى بعض الأسطوانات من مغلف أنيق.. وسألني:

- هل تحب (فاجنر)؟

قلت في فتور (فأنا بالمناسبة عدو الموسيقا الكلاسيك رقم واحد):

- أحبه إلى درجة أنني أفضل الموت ما لم أستمع إليه!

هتف في مرح وهو يضع الاسطوانة على جهاز (جراموفون) جميل الشكل:
- رائع!.. والآن فلنصغ معًا إلى صراع الأرواح القلقة التي أبدعتها عبقرية هذا الساحر.. إنني لا أمل هذه التحفة..
وتصاعدت من مكان ما بالقاعة النغمات القدرية الدوامية المميزة لـ (طائر النار) فشعرت أنني أحلق معها.. من العجيب أنني لم أكن أعرف اسم هذا العمل لكني فردت جناحين وهميين أطير بهما فوق أفاق لم أرها في حياتي لعوالم لم يزرها بشر..
وفي أثناء هذه الملحمة دق جرس الباب فاتجه (عماد) ليفتحه، كان هذا هو البواب الذي ناول (عماد) لفافة ما.. وعاد (عماد) حاملًا اللفافة وأحضر طبقين وأدوات طعام

وكوبي ماء، وأعد مائدة صغيرة في قاعة الجلوس تصلح لنتناول عليها ما جلبه البواب من المطعم المجاور.. كان هذا كبابًا ساخنًا وكان هذا كافيًا ليغيب الأخ (فاجنر) في غياهب النسيان فلم تبق منه سوى ضوضاء مبهمة في مؤخرة وعيي..

وارتفعت أصوات المضغ والازدراد فالهضم..

سألته وأنا ألعق شفتي:

- تعيش على الطعام الجاهز؟

- أجده أكثر ملاءمة لحياة عملية.. إن مطبخ هذه (الفيللا) لا يحوي وعاء طهي واحدًا..

- هذا شأني أنا الآخر..

ونظرت له شاردًا..

لا أدري لماذا يا (عماد) أفتقر فيك الكثير من نزق الماضي ومرحه؟.. أنت هو أنت ولكن في طبعة ماسخة فاترة..

لماذا تعيش وحيدًا في هذه (الفيللا) الكئيبة؟.. لماذا فارقت أسرتك؟.. لماذا لم تتزوج بعد؟.. إن البرد يطل من كل ركن في هذا المكان رغم أناقته.. لأنها حياة بلا صديق.. بلا أهل.. بلا أطفال.. بلا زوجة..

أعرف أن حياتي الخاصة لا تختلف عن هذا كثيرًا لكن وضعي يختلف.. فأنا - وقتها - كنت في طريقي للسفر إلى (اسكتلندا) للحصول على درجة دكتوراه في أمراض الدم تحت إشراف السير (جيمس ماكيلوب)، وكنت سأقابل (ماجي) ابنته التي ستكون السبب الحقيقي في عدم زواجي..

كانت ظروفي لا تسمح بتكوين أسرة وقتها.. لكن ذاك لم يكن شأن (عماد)..
بعد الكباب - وبعد اسطوانة (فاجنر) - سألته عما يجول بخلدي من خواطر، فنهض ليضع أسطوانة لـ (موتسارت) رغم احتجاجي الصامت، وقال وهو يعود ليجلس على الأريكة:
- قلت لك مرارًا يا (رفعت) إنني روح قلقة.. روح لا ترضى بأي شيء من الأشياء التي يحبها أصحاب الأرواح المترهلة المتراخية.. إنني ثري لكنني تعس.. ناجح في عملي لكنني تعس.. لو تزوجت من فتاة حسناء سأظل تعسًا.. لو رزقت بأروع طفل في العالم سأظل تعسًا..

وفكر لحظة ثم أردف ببيت شعر لـ (أبو العلاء المعري) يقول:

ولو أن النجوم لدي مال نفت كفاي أكثرها انتقادًا

كان هذا هو لقاؤنا الأول بعد سنوات الفراق..

ولم أكن أعلم - ولم يكن هو يعلم - أن فراقنا سيطول كثيرًا.. وأننا لن نلتقي إلا في عام ١٩٦٨!، أي بعد ثلاثة عشر عامًا كاملًا تغيرت فيها أشياء وأشياء...

لقد سافرت إلى اسكتلندا (جامعة داندي) ثم عدت من هناك، وبدأت رحلة حياتي العجيبة التي اصطحبتكم فيها معي منذ قصة (مصاص الدماء) وحتى هذه القصة التي أحكيها لكم الآن..

بالطبع لم أملك وقت فراغ يسمح لي بإعادة الاتصال بـ (عماد).. ولم يكن هو يعرف طريقة اتصال مؤكدة بي لأن عنواني تبدل..

لكن الأرض مستديرة، أو كما يقولون (مصير الحي يتلاقى)..

وكان اللقاء الثاني في تلك الأمسية التي عدت فيها لداري منهكًا شاعرًا بالوحدة والوحشة في الأيام التي تلت انفصالي عن (هويدا)..، كدت أختنق من ثقل الساعات فوق روحي، وقد كنت في البداية أستطيع زيارة (هن - تشو - كان) - الكاهن الأخير - في شقته.. أما وقد آثر البقاء في (التبت) فلم يعد لدي سوى (عزت) جاري المثّال..

وبالطبع لم أجده فعلمت أنه في (الإسكندرية) كعادته يبحث عن وحي جديد.. إلى أين أذهب إذن؟
وهنا تذكرت (عماد) فجأة كما ينحسر المد عن سفينة غارقة نساها الناس منذ قرون.. لم لا أكرر زيارتي له؟.. ترى هل تزوج؟.. ترى هل سافر؟.. ترى هل مات؟!..
ودونما تفكير وجدتني أقود سيارتي في شوارع (الزمالك) معتصرًا ذاكرتي بحثًا عن مكان (الفيللا) التي زرتها منذ ثلاثة عشر عامًا..
أخيرًا وجدتها.. لم يتغير شيء سوى إهمال واضح في الحديقة، والبواب النوبي العجوز مازال جالسًا يدخن (الجوزة)

ويبصق ويصغي للمذياع الصغير الذي وضعه جواره على الدكة..

دنوت منه وسألته - وقلبي يخفق - عن دكتور (عماد) فسعل ثلاث مرات.. وأمرني أن (استني هنا) بصيغة التأنيث التي يستعملها النوبيون.. وهرع إلى داخل (الفيللا).. بضع دقائق ثم عاد لي يدعوني للدخول..

- ولكن الكلب؟

- لم تعد هناك كلاب.. أدخلي ولا تخافي..

وفتح لي البوابة عن آخرها، فدلفت منها أجر قدمًا وراء قدم.. ما بين صفوف الأشجار العملاقة التي أجهل اسمها، والنباتات التي جاءت لتوها من المريخ..

غريب هذا السكون.. السكون المريب..

لا صوت هنالك سوى صوت أعشاب تتهشم تحت حذائي، وثمة سحلية صغيرة بائسة تختفي في وجل بين الخضرة وقد أزعجها قدومي غير المتوقع..

كان هناك خرطوم مياه على الأرض يفرغ تيارًا منتظمًا من الماء على جذور شجيرة برتقال طفلة.. فمضيت أتتبع ذلك الخرطوم عالمًا أنه سيقودني إلى صنبور ربما يقف (عماد) جواره..

وهنا وجدت حوضًا صغيرًا به نباتات لم ار مثلها في حياتي..

كانت الأوراق مسودة حافاتها حمراء كالدم.. وكانت أشواك حادة بشعة المظهر تحيط بكل ورقة على امتداد محيطها..،

ارتفاع النبتة يقترب من المتر ولها رائحة غريبة لم ترق لي كثيرًا..
وجدت لافتة خشبية صغيرة مزروعة على حافة الحوض كتب عليها بحروف لاتينية (موكاسا نيجرا)..
إذن هذا هو اسم النبات.. غريب أن يكتب أحدهم أسماء النباتات في حديقته كأنه معرض أو متحف تعليمي..
إن (نيجرا) كلمة لاتينية معناها (أسود).. وما دام هذا النبات أسود فلابد أن نبات (الموكاسا ألبا) - (ألبا) باللاتينية معناها (أبيض) - ينتظر على بعد أمتار من هنا..
مشعلًا سيجارة (للأسف كانت محاولتي الأولى للإقلاع قد فشلت) مضيت أتأمل المزروعات واضعًا يدي في جيبي..، لم

تكن ثمة أسماء أخرى فقد انتهى دور (عماد) التعليمي عند نبات (الموكاسا) فيما يبدو..

ومن الواضح أنه يعلق أهمية معينة على هذا النبات..

كنت مديرًا ظهري للنبات الذي وصفته لك وقد انحنيت أتأمل النباتات الأخرى في فضول.. النباتات ذات المظهر المألوف لي..

حين حدث شيء مفزع..

* * *

٣- إنه حيّ!..

حتى في تلك الآونة كنت ساذجًا..

وكنت بحاجة إلى المزيد من الدروس عن الحياة والمخلوقات..

الحق أقول لكم أنني كنت أجهل حقيقة مروعة: حينما تجد نباتًا لا تعرفه فليس من الحكمة أن تدير ظهرك له!..

وسأقول لكم حالًا كيف تعلمت هذه الحقيقة..

* * *

سمعت صوت حفيف من وراء ظهري فأجفلت واستدرت لأرى..

قلبي سقط في قدمي لثوان ثم أنه - بعد أن رأى ما رأى - ظل في قدمي رافضًا أن يعود لمكانه!..

رأيت - غير مصدق ولا متوقع - أوراق النبات إياه تفتح وتغلق مرارًا لا حصر لها كأنها قد جنت، والأسوأ هو أنها كانت تتلوى فوق سيقانها.. والسيقان نفسها تتلوى كأنها ترقص رقصة محمومة..

ورأيت شيئًا طويلًا - كأذرع النباتات المتسلقة - يخرج من بين السيقان مرتفعًا ببطء نحو وجهي!..

مستحيل!.. ليس هذا صحيحًا!..

هل صرخت وجلًا؟.. أظن أنني فعلت.. حتمًا فعلت.. ووثبت إلى الوراء كرد فعل تلقائي محاولًا الابتعاد عن هذا الكابوس..

وهنا حدث شيء لا يصدق..

وثب الذراع الطويل - كلسان حرباء يلتقط حشرة - إلى معصمي.. وقبل أن أفهم ما حدث التف حوله مرتين أو ثلاثًا.. وشرع يجذبه نحو النبات الأم بقوة لا بأس بها!..

في البدء ظننت أنها أفعى كانت غافية بين سيقان النبات.. ثم بدأت أدرك أنه - بالفعل - جزء من النبات ذاته..

الرعب يقتلني لكنني قادر - رغم كل شيء - على انتزاع هذا الذراع بل وانتزاع

النبات نفسه من مكانه، فإن أنسجته هشة حقًا..
لكنني شعرت بوخز في معصمي..
أدركت - في هلع - أن هذا الذراع يحقنني بمادة ما، كالتي يحقن بها العنكبوت ذبابة أضخم منه ليستطيع امتصاص أحشائها.. لا بد أنه مخدر أو مادة تسبب الشلل وبالتالي سيكون من السهل على النبات أن يجذبني إليه ليبدأ الحفل..
بالفعل.. قواي تخور.. تنميل في اطرافي.. عرق بارد..
ثم.....
الظلام.. الأسود العظيم يدعوني إلى مأدبته.. و.....

* * *



وثب الـذراع الطـويل ـ كلسـان حربـاء يلتقط حشـرة ـ إلى معصمي ..

مذاق الليمون الحمضي يغمر لعابي..
ثم قرص (النيتروجلسرين) المر تحت لساني يذوب.. يذوب.. هلمي يا شراييني التاجية استسلمي للمسة (النترات) الحانية.. تفتحي.. تفتحي.. وامنحي الدماء لقلبي الشيخ..
وحين فتحت عيني كان هناك......
لقد تجاوز الأربعين مثلي لكن شتان بين أربعين وأربعين.. أربعون عامًا أطاحت بشعر رأسي وأوهنت نظري وأصابتني بالهزال، أما (عماد) فقد أضافت له السنون رونقًا وسحرًا وجاذبية..
كنت مضطجعًا على أريكة مريحة في رواق داره، وكان هو راكعًا على ركبتيه جواري يحمل في يده زجاجة الـ

(نيتروجلسرين) التي وجدها في جيب بذلتي.. لابد أنني طلبت منه أن يدس قرصًا في فمي منها..

نظرت إليه بعينين زائغتين فبدا عليه الرضا.. وهتف متنهدًا:

- أخيرًا يا (رفعت)!.. كدت تقتلني رعبًا!

- ليتني فعلت!..

وفهمت منه أنه - بعد أن أخبره البواب بقدومي - بدأ باستبدال ثيابه توطئة لاستقبالي، ولم يتوقع أن البواب الأحمق سيتركني أجتاز الحديقة وحدي، ولم يخطر له أنني - المعتوه - سأقوم برحلات استكشافية بين الأشجار حيث لا ينبغي أن أذهب..

فهمت منه كذلك أنه خرج إلى الحديقة بحثًا عني فسمع صرخة.. ولما ذهب إلى حيث كنت وجدني مصابًا بنوبة قلبية جوار نبات الـ (موكاسا نيجرا) الذي يربيه في الحديقة، وبصعوبة جرني جرًا إلى داخل البيت حيث قدم لي شراب الليمون وقرصًا من هذه الأقراص التي يحملها مرضى القلب دائمًا ولا يجدون أبدًا الوقت الكافي لتناولها قبل أن يموتوا.. وهأنذا - ولله الحمد - حي أرزق..

صحت في حنق وأنا أقاوم رغبتي في خنقه:

- لم أتوقع أنك جننت تمامًا في تلك السنين التي لم أرك فيها...

وإلا - بالله عليك - ما الذي يدعو إنسانًا عاقلًا لتربية هذا الوحش الذي كاد يقتلني؟!

في دهشة حقيقية تساءل:

- عم تتحدث بالضبط؟.. أي وحش؟

- النبات المشئوم الذي..!..

نظر لي هنيهة غير مستوعب لكلامي.. ثم أشرق وجهه بالفهم فضحك.. وطفق يشرح لي ما خفي عنى:

- إذن كانت الهلوسة البصرية هي التي أصابتك بالنوبة!.. الواقع يا عزيزي (رفعت) أنك كنت ضحية هلوسة مريعة تسببها الرائحة التي يطلقها هذا النبات..

- تعنى أنه لم....؟

- لا أدري ما فعله معك.. لكن أيًا ما كان ذلك فهو غير حقيقي!.. والآن دعني أحك

لك القصة من بدايتها..

* * *

قال (عماد):
أنت تعرف أنني كثير الأسفار..، ولقد بدأ كل شيء في رحلة قمت بها إلى الولايات المتحدة حيث قابلت الأستاذ (ديفيد أوبريان) وهو عالم نبات له مقالات عدة لا بأس بها واسمه تعرفه كل المحافل العلمية المختصة..
كانت صداقة حميمة حقًا.. وعندما حان وقت الرحيل أهداني كيسًا صغيرًا من (النايلون) به بذور غريبة الشكل قال لي إنه وجدها في مكان ما قرب مجرى نهر (الأمازون).. ودعاني إلى أن أحاول

استزراعها في مناخ (مصر) الدافئ لأن كل محاولاته لاستنباتها قد باءت بالفشل..

سألته عن اسم النبات، فقال لي إنه لا يعرفه.. بل وأن هناك احتمالًا لا بأس به أنه لا أحد يعرفه.. ربما كان هذا النبات بكرًا لم يصفه بشر بعد..

عدت إلى (مصر) ملهوفًا إلى أن أبدأ تجاربي على هذا النبات العجيب، وكنت منظمًا كعهدك بي.. فقسمت البذور - بعد فحص بعضها تحت المجهر - إلى ست مجموعات قمت بزراعة كل منها في تربة وظروف جوية مختلفة وإن ملت إلى رفع درجة الحرارة لأن المؤكد أن هذا النبات كان ينمو في درجة حرارة دافئة..

وطفقت أنتظر....

* * *

كانت هذه الأحداث منذ ثلاثة أعوام (والكلام لم يزل لـ (عماد)، وخيبة الأمل كانت الثمرة الوحيدة التي سمح لي أن أجنيها.. وبدأت أتساءل عما إذا كانت هذه البذور حية أم ميتة.. إنني لم أميز (الجنين) تحت المجهر ولم أستطع تمييز أية أنسجة فهل هي قديمة إلى هذا الحد؟..

كان الضيق يمزقني والإحساس بالفشل يعتصرني وخطابات الأستاذ الأمريكي تزيد عذابي. قلت لك لا جدوى.. أنا حاولت كثيرًا من قبلك،، وأنت تعرف روحي القلقة يا عزيزي (رفعت)..

أنت تعرف تعطشي الدائم إلى المجهول.. وأنت تعرف أنني لم أكن لأستريح حتى

ألمس الحقيقة..
وجاء الجواب في ليلة صيف رائعة نمت فيها أحلم بشريط حياتي الحائرة بحثًا عن شيء لم تستطع ثروتي ولا معرفتي أن تقدمه لي..
وفي منتصف الليل سمعت جلبة معينة قادمة من أحد أركان (الفيللا)، فارتديت روبي وخفي وخرجت أبحث عن مصدر الصوت مطمئنًا إلى أنه لن يكون لصًا لأن كلبي الشرس (موكاسا) يحميني كالشيطان ذاته من بطش اللصوص.. إن اللص الذي يدخل داري هو ميت مالم يصرخ لننقذه من الكلب..
وفي حجرة المكتب وجدت ذلك اللص البائس يحاول فتح الخزانة الرقمية

الموضوعة هناك على ضوء بطارية.. ورغم دهشتي عن كيفية دخوله لم أفقد ترتيب أفكاري.. من ثم تسللت بخفة إلى خارج الحجرة وجذبت الباب خلفي ثم أحكمت غلقه بالمفتاح من الخارج عالمًا أن الحجرة بلا نوافذ.. وهرعت إلى الهاتف أطلب الشرطة..

وحين جاء هؤلاء - بعد نصف ساعة - قبضوا على اللص الذي وقع كفأر في مصيدة.. وأخبروني أنه دخل من نافذة حجرة الجلوس بعد أن قطع زجاجها بماسة يحملها..

أخبروني - كذلك - أنه تخلص من الكلب ليتسنى له الدخول عن طريق إلقاء رغيف مملوء باللحم المفروم في طريقه.. وكان

اللحم المفروم مخلوطًا بمادة (الزرنيخ) التي التهمها عزيزي (موكاسا) في نهم ليلفظ أنفاسه الأخيرة، ويتمكن اللص من اقتحام (الفيللا) أملًا في سرقتها دون أن أستيقظ أنا..

كانت - بالتأكيد - مغامرة بائسة، ولم يستفد منها أحد.. لا اللص ولا الكلب ولا أنا.. واحد فقد حريته وواحد فقد حياته وواحد فقد كلبه العزيز..

وكل هذا من أجل حفنة جنيهات..

المهم أن دموعًا كثيرة بللت جثة الكلب، وآليت على نفسي لأدفنه بنفسي في الحديقة بين الأشجار التي أحبها في حياته كثيرًا..

وفعلت ذلك وتبًا لها من مهمة قاسية!

بعد يومين لا أكثر بدأت ألاحظ أشياء أثارت ذهولي..

فنافشة أوراقها بدأت سيقان سوداء تبرز من التربة - حيث واريت جسد الكلب - وكلها تحمل أوراقًا سوداء لها حواف حمراء تجللها الأشواك..

نبات لم أر مثله قط ينمو بسرعة لم اعهدها.. وهنا تذكرت..

لقد كنت غرست بعض البذور في هذه التربة منذ زمن بعيد في محاولتي لاستنبات البذور التي أعطانيها الأستاذ الأمريكي.. ونسيتها تمامًا..

فجأة تذكرت هذه البذور إنها حية وإنها يجب أن تمارس ما خلقت له..

فما سر هذا التحول المفاجئ بعد كل هذا الصمت؟!..

الإجابة معروفة لنا جميعًا.. إنها جثة الكلب المتحللة التي منحت البذور موردًا هائلًا من (النيتروجين) و (الكبريت) و (الهيدروجين) كانت تحتاج إليه..

وها هو ذا الحادث الأليم قد أفادني كثيرًا.. وقدم لي الجواب..

إن بذور هذا النبات لا تنبت إلا في تربة تحوي كائنًا عضويًا متحللًا وهو ما لا بد أنها كانت تجده بكثرة في (الأمازون)..

سيكون اسم النبات هو (موكاسا) تخليدًا لذكرى كلبي.. ونظرًا لأن قواعد التسمية الصارمة التي وضعها (لينيوس) تحتم وجود مقطعين للاسم فإنني سأسمي النبات

(موكاسا نيجرا) نسبة إلى سواد أوراقه العجيب، وليكونن (موكاسا نيجرا) هو حديث العلماء في العقد القادم.. وليكون هو شغلي الشاغل في الأيام القادمة..

تشريحه.. أسلوب تكاثره.. تمثيله الغذائي.. كل هذا وأكثر لا بد وأن يدون ويوصف بدقة..

ثم - السؤال الأهم - ما سر نهم هذا النبات المحموم إلى (النتروجين)؟

إنه في هذا يتصرف كالنباتات المفترسة - وعددها خمسمائة نوع في العالم - التي تعيش في تربة فقيرة في (النتروجين) من ثم تعوض حاجتها له عن طريق اصطياد الحشرات وهضمها بواسطة إنزيمات

(التربسين) و (الببسين) المماثلة لما تفرزه معدة الحيوانات آكلة اللحوم..

إن هذه النباتات أعجوبة حقيقية.. فمنها ما يطبق بأوراقه - كالمصيدة - على الحشرة التي يقودها سوء أخلاقها إلى الاقتراب من هذه النباتات.. ومثالها نبات (ديونيا)..

ومن هذه النباتات ما يفرز سائلًا لزجًا على الأوراق تلتصق به الحشرات..

ومثالها نبات (بينجويكلا) الذي رأيته في مستنقعات (انجلترا)..

ومنها نباتات ذات وعاء أنبوبي مبلل لتنزلق الحشرات على حافته فتسقط داخل الوعاء.. ومثالها نبات (سراسينيا) في أمريكا الشمالية..

لكن الـ (موكاسا) يختلف.. فهو لا يملك أية حيل مماثلة، والذباب يقف على أوراقه طيلة الوقت دون أن يبدي هذا اهتمامًا..

إنه ليس نباتًا مفترسًا أو هو - على الأقل - يتظاهر بالبراءة..

لقد أمضيت عامًا كاملًا مع هذا النبات ولم أر شيئًا يثير ريبتي.. إلا أن هناك نقطتين هامتين يجب ذكرهما:

النقطة الأولى: هي أنه يطلق زيتًا عطريًا معينًا له خواص غامضة.. لكنه يسبب هلاوس بصرية وسمعية شنيعة.. وأنا أعرف أنك جربت هذه الهلاوس.. وهي خطرة بالفعل بالنسبة لضعاف القلوب..

النقطة الثانية: هي أن النبات لا يحوي جزيء (كلوروفيل) واحدًا.. مثله مثل

النباتات الطفيلية كلها، لكنه يحوي مركبًا أحمر اللون لا أعرفه..
وهذا المركب يختزن (الأكسجين) ويطلقه على فترات متباعدة..
أعرف أن كلامي يبدو سخيفًا، لكن هذا المركب يذكرني بالدم البشري إلى حد مفزع!!
..............!

❋ ❋ ❋

٤ - تساؤلات..

كان الدوار قد تلاشى وبدأ رأسي يتزن على كتفي.. فجلست على الأريكة للمرة الأولى وحككت رأسي وسألته:

- ماذا تعني بقدرة النبات على إحداث هلاوس؟

في حماس.. غمغم وهو يجلس على أريكة أخرى:

- لم لا؟.. كم نوعًا من المخدرات تم استخراجه من ثمرة الخشخاش؟ وكم من الهلاوس يحدثها نبات (البيللادونا)؟.. شيء مألوف وطبيعي أن تخرج من نبات ما رائحة تسبب الهلوسة..

- وما هذا الصبغ الأحمر الذي تتحدث عنه؟

هذه المرة نهض في حماس، وغاب عن عيني بضع دقائق أخذت أتأمل الشقة فيها ثم عاد لي حاملًا أنبوب اختبار مغلقًا بسدادة من الفلين.. كان الأنبوب يحوي مادة حمراء اللون قانية..

قال وهو يناولني إياها:

- هي ذي.. لقد فشلت تماما في معرفة كنهها..

دسست الانبوب في جيب سترتي.. وقلت في توتر:

- دعني أحاول.. إن التحليل (الكروماتوجرافي) سيساعدنا كثيرًا.. ولكن

لا تقل لي إنك لم تطلب عون أحد زملائك من أساتذة الكيمياء..

- لا أريد إقحام أحد في هذا الموضوع كما تتوقع.. إن نبات (موكاسا) ملك لي وحدي ولربما أنت أول مخلوق يعرف ما أعرف..

- إذن ثق في..



هذه المرة نهض فى حماس ، وغاب عن عينى بضع دقائق ، أخذت
أتأمل الشقة ، فيها ثم عاد لى حاملاً أنبوب اختبار ..

وساد الصمت لبرهة..

غريب عليك يا (عماد) أن تنغلق على نفسك لتعيش مع هذا الكابوس.. أنا أفهم الفضول العلمي تمامًا لكن هذا الفعل جدير بشخصية أخرى.. شخصية معقدة انطوائية تهوي أكسجين الوحدة.. وتعشق ظلال الليل.. شخصية هي أقرب للوطاويط منها للبشر.. شخصية هي أبعد ما تكون عنك..

لكن الأعوام تغير الكثير.. إنها تبدل تضاريس الجبال فكيف لا تبدل تضاريس شخصيتك؟..

دون كياسة سألته وأنا أنظر في عينيه:

- لماذا لم تتزوج بعد يا (عماد)؟

هز يده في توتر.. وأبعد عينيه عني:

- لأني لا أحب الخداع!.. هذا هو كل شيء!

ثم انتابته حالة من العدوانية فرفع حاجبه الأيسر متسائلًا في تحد:

- ولماذا لم تفعل أنت؟

- لأنني لم أنضج بعد إلى الحد الكافي.. أبدًا لن أصدق أنني كبرت وصرت صالحًا للزواج كالآخرين!

تحاشى النظر إلى عيني.. ففهمت على الفور ما يريد قوله وما يعنيه بلفظة (خداع).. ولم أر من صواب الرأي أن أستفسر أكثر فغيرت الموضوع سريعًا إلى سؤاله عن أحواله، وإلى ثرثرة طويلة عن حياتي وأحداثها في الآونة السابقة..

وحين عدت إلى داري كان الليل قد انتصف..
وسجائري قد نفدت..

❋ ❋ ❋

شقتي الكئيبة الحبيبة!..
اتجهت إلى جهاز التسجيل فوضعت بكرة عليها حفل (لأم كلثوم)، وعلى الموقد وضعت براد الشاي وبدأت أنضو ثيابي - في الصالة كدأبي - ثم دلفت إلى الحمام لأفتح المياه الساخنة.. فأنا بحاجة إلى حمام يغسل عن جسدي آثار مغامرة الأمسية..
الماء!.. الماء الحبيب!.. توأم روحي.. و..... آي!..
هذا الألم المبهم في معصمي.. ما سره؟!..

خرجت من تحت شلال الماء لأرى ما هنالك.. فوجدت وخزات عدة كآثار إبر تركت رءوسًا حمراء في جلدي..

كان البخار يملأ المكان.. وصوت (أم كلثوم) الدافئ الحارق يردد (هذه ليلتي).. والماء ينساب على أهدابي فيحجب الرؤية..

لكني شعرت بالرعب يزحف عبر عمود الفقري.. والشعيرات الباقية في رأسي تنتصب..

إذن لم يكن وهمًا!..

الذراع التي قذفها النبات ليجذبني إليه كانت حقيقة واقعة.. وهذه الآثار دليل قاطع على ذلك..

ودون أن أدري ما أفعله، أغلقت صنبور الماء وجففت جسدي.. غادرت الحمام مبلل

الفكر لأرتدي منامتي، وأجلس في الصالة أرشف الشاي وأفكر..
لم يكن وهمًا!..
معنى هذا أن هذا الكابوس حقيقة واقعة..
ومعناه أن (عماد) إما كاذب وإما مخدوع...

❋ ❋ ❋

"لو أن المرء نام فحلم بالفردوس، ورأى نفسه يلتقط زهرة من هناك.. ثم إنه عند استيقاظه وجد الزهرة في يده....... أواه!.. ثم ماذا بعد ذلك؟"
من قصيدة لـ (كولردج) تذكرتها على الفور..

❋ ❋ ❋

تناول منى د. (صبحي) المدرس بكلية الصيدلة ذلك الأنبوب الذي يحوي السائل الأحمر.. فتأمله في رفق ثم نظر إلي متسائلًا:

- بالطبع يمكننا أن نجري عليه التحليل الكروماتوجرافي.. ولكن لماذا لا تحاول أن ترى الأنبوب عبر الـ (سبكتروفوتومتر)؟

فكرة لا بأس بها ولم تخطر لي قط..

لهذا توجهت معه إلى المعمل حيث باشر إعداد العينة لكلا الاختبارين.. ثم ناولني أنبوب اختبار يحوي المادة مخففة ومعها عدسة الـ (سبكتروفوتومتر) السوداء الصغيرة..

سرت إلى النافذة ورفعت الأنبوب أمام النور ووضعت العدسة على عيني لأتمكن

من رؤية خطوط الطيف التي ستقطعها خيوط سوداء تحدد نوع المادة..

قال د. (صبحي) وهو يفرغ سحاحة صغيرة في أنبوب اختبار:

- إن هذه المادة تشبه (الهيموجلوبين)[1] إلى حد غير عادي.. ألا ترى ذلك؟

ولما لاحظ أنني لم أرد ناداني في إلحاح:

- هيه!.. (رفعت).. هل هناك شيء؟

دون أن أدير ظهري أو أرفع العدسة عن عيني.. همست:

- بالفعل.. هناك أشياء..

- عم تتحدث بالضبط؟

- إن هذه المادة لا تشبه (الهيموجلوبين).. إنها هي (الهيموجلوبين) ذاته!!

* * *

- مستحيل!.. أنت تقول إن أصلها نباتي.. أنت تعرف أن جزيء (الكلوروفيل) - الصبغ المسئول عن التمثيل الضوئي للنبات - يماثل جزيء (الهيموجلوبين) إلى حد غير عادي.. لكن الخلط بينهما لا يمكن أن يحدث..

- إن لون (الكلوروفيل) أخضر يا (صبحي)..

وتركته يحاول فصل المادة بالتحليل (الكروماتوجرافي)، وركبت سيارتي عائدًا إلى داري، فما أن دخلت حتى هرعت إلى الهاتف لأطلب (عماد).. سمعت صوته الرزين يسأل عمن هناك.. فقلت في لهفة:

- (عماد).. لقد حللت المادة الحمراء.. أنت نباتي التفكير تمامًا لهذا لم تحاول البحث عن (الهيموجلوبين)، أما أنا فحيواني التفكير - إذا صح هذا التعبير - ولقد بحثت عن (الهيموجلوبين) فوجدته!

سمعت صوته يتساءل في برود:

- وما الذي يعنيه ذلك؟

نافد الصبر صحت فيه وأنا أوشك على الانفجار:

- حسن!.. أنت تربي في دارك نباتًا وقحًا يؤذي الضيوف ويطلق رائحة مخدرة.. بل - الأسوأ - تجري في عروقه دماء بشرية!

ألا تجد في كل هذا ما يثير الريبة؟!

عاد صوته يقول في شيء من الكبرياء:

- كل ما أعرفه يا عزيزي (رفعت) هو أن هذه ظاهرة علمية تستحق أن ندرسها ونحللها.. لا أن نطلق صيحات الهلع، وإنني لأتوقع منك أن تجد تفسيرًا..

قلت له مغتاظًا:

- أصدقك القول أنني لا أرتاح كثيرًا لهذا النبات.. ولو كنت مكانك لسكبت فوقه زجاجة (كيروسين) وأحرقته..

- لحسن الحظ أنك لست مكاني!

لم أصارحه برأيي في أكذوبته عن (الرائحة المخدرة) ربما لأنني توقعت أنه قد لا يكون كاذبًا بعد كل شيء..

وفي المساء توجهت إلى (الفيللا) لأقابله وأحدثه عما يعتمل في ذهني من هواجس..

كان البواب النوبي جالسًا يستمتع بأنسام المساء على صوت أغنية من جهاز المذياع، فحييته.. رد التحية متوقعًا أن أطلب الدخول..

لكني تربعت على الدكة بجواره وأخرجت علبة سجائري وقدمت له واحدة رفضها في عناد لأنه لا يشرب سوى (المعسل) كما قال..

كان اسمه (عبد الودود).. وكان نمطًا رائعًا للرجل الذي شاب رأسه وقلبه من فرط التجارب فلم يعد يبالي بشيء، ولو كان عندي من الوقت أو سعة الصدر ما يسمحان بالاسترسال لسودت أربع صفحات كاملة في الحديث عنه، أما وأنا من أنا من ملل ونفاد صبر فأكتفي بالقول أنه بدأ يثرثر

بعد جهد جهيد وبدأ يمنحني ثقته التي ضن علي بها في البدء باعتباري ذلك (الأفندي) الفضولي غريب الأطوار الذي يفضل الجلوس مع البواب بدلًا من الجلوس مع صاحب الدار..

وعرفت أنه يقيم في غرفة صغيرة جوار البوابة مع زوجة هي أقرب للجثث، وذلك بعد أن تزوج الأولاد ورحل بعضهم عن عالمنا..

سألته - متظاهرًا بعدم الاكتراث - عن الحديقة، فقال لي إنه ممنوع من السير فيها لأن (عماد بك) يعني بها بنفسه ولا يسمح بأي تدخل..

- والضيوف؟.. هل هم أيضًا ممنوعون؟

بصق على الأرض ومسح بصقته بحذائه الكبير.. وغمغم:

- ضيوف؟.. لا أحد يجيء هنا.. أنت أول من يدخل هذه الحديقة منذ عشر سنوات!

أطلقت صفيرًا ينم عن الدهشة.. ثم سألته في حذر:

- إذن لم يرحب (عماد بك) بسماحك لي بالدخول هنا في المرة السابقة؟

- ياااه!

قالها بصيغة المبالغة.. وأردف:

- لم يكف عن لومي على تركك تجتاز الحديقة وحيدًا.. إن (عماد بك) يأبى أن يجتازها أي إنسان حتى أنا..

وحتى تموين الأسبوع من اللحوم أتركه جوار البوابة حتى يأتي ويأخذه هو..

أثارت هذه النقطة فضولي:
- تعنى تموين الأسبوع من الأطعمة عامة؟
- بل من اللحوم.. باقي الأطعمة يشتريها هو بنفسه..
أما اللحم فأشتريه له بسعر رخيص من بقايا الذبائح في (السلخانة)..
- بقايا ذبائح؟!.. وهل يأكلها هو؟
هز رأسه في لامبالاة أقرب للغباء.. وقال:
- يأكل بقايا الذبائح؟.. كنت أظنك متعلمًا وسريع الفهم!..
- وأنا كذلك.. إذن ماذا يفعل بها؟
تثاءب ورفع قدمه على الدكة ورفع صوت المذياع قائلًا:

- وما شأني أنا بذلك؟.. هو حر فيما يفعله.. والآن حان الوقت لتدخل إليه أو لتنصرف.. إنني أعرف أساليب الفضوليين هذه.. صدقني أنا أعرفها تمامًا!

....

❋ ❋ ❋

٥ - كشف الأوراق..

في هذه المرة خرج (عماد) ليستقبلني عند باب (الفيللا).. كان يرتدي روبًا أنيقًا من تحته القميص وربطة العنق فبدا كزير نساء في أحد الأفلام المصرية العتيقة، خاصة وأن ثراءه وحياته وحيدًا يثيران التساؤلات في الأذهان.. وهنا خطر لي أن المرأة التي يفوتها قطار الزواج يسميها المجتمع عانسًا وينسى أمرها تمامًا، أما الرجل الذي يفوته القطار - مثلي - فإنه يظل فريسة التكهنات والظنون حتى يواريه القبر.. ليس المجتمع قاسيًا على النساء إلى الحد الذي يحسبنه!..

نظر (عماد) إلى البواب العجوز نظرة استكشافية سريعة، ثم صافحني واقتادني إلى الداخل غير ناس أن يسألني:

- أنت هنا من زمن؟

وذلك - بالطبع - ليتأكد مما إذا كان البواب قد ثرثر أكثر من اللازم.. فقلت:

- وصلت منذ ثوان..

كنا نسير بين الأشجار قاصدين المنزل الغافي بينها، وكنت شغوفًا بأن أعود إلى البقعة التي قابلت فيها النبات أول مرة.. لكنه كان مقتضبًا وفاترًا - (عماد) لا النبات طبعًا - إزاء هذه الرغبة.

- فيما بعد.. فيما بعد!

قالها لي وهو يقودني إلى باب المنزل الموارب..

بعد ثوان.. صوت ضربات القدر الذي أنجبنه عبقرية (بتهوفن) يدوي عبر سماعات متناثرة في أرجاء القاعة، وكأس من عصير الليمون المثلج بين أصابعي.. و (عماد) يجوب المكان في شيء من العصبية..

قلت له بعد دقائق:

- (عماد)..

- هم م م م؟

- إذا أردت ألا يصيبني الجنون؛ فاجلس بحق السماء!

جلس بعد تردد.. فواصلت أسئلتي:

- ماذا تفعل بكل هذا اللحم الذي يجلبه البواب؟!

كأنما كان ينتظر هذا السؤال، لم ينكر شيئًا ولم يسألني كيف عرفت.. بل أجاب في كياسة وهو يرشف كأسه:

- قلت لك أن نبات الـ (موكاسا) لا ينمو إلا في تربة بها مادة عضوية متحللة.. وأنا لن أقتل كلبًا وأدفنه كل يوم!

- إذن هناك أكثر من نموذج لهذا النبات في دارك؟

- وفي الحمام.. وفي المكتب.. وفي غرفة النوم.. إنني أراه جميلًا ولا يمكن لك أن تحاسبني على ذوقي الخاص..

- والرائحة التي تسبب الهلاوس؟

- حسن.. لنقل أنني اعتدتها كما اعتاد (راسبوتين) السم[2]!

ساد الصمت للحظات.. فلم يعد هناك ما يقال..

بعد برهة أشعلت لفافة تبغ، وقلت له ضاغطًا على حروفي:

- (عماد).. أنا أعرف أنك تخفى عني شيئًا.. أنت تعرف كما أعرف أن هذا النبات غير طبيعي.. ومهاجمته لي في المرة السابقة لم تكن وهمًا.. الثقوب التي في معصمي تقول إنه لم يكن وهمًا.. لقد كان يحقنني بمادة هي إلى (الكورار) أقرب..، وتعرف أنه كان يتحرك.. بل أنت تمنع البواب والضيوف من السير في الحديقة.. لماذا؟.. لأنك تعرف جيدًا الخطر الحقيقي المتربص وراء هذا النبات..

كان نفسي قد انقطع من الانفعال فالتقطته.. ثم قلت في رزانة:

- (عماد).. يجب أن تخبرني بكل ما تخفيه وإلا لن أكون ذا عون لك..

نظر لي في حيرة هنيهة..

ولثوان ظننته موشكًا على الكلام لكن ظني خاب.. اكتفى بأن قال وهو يدير ظهره لي:

- (رفعت).. سبق لك أن سألتني عن عدم زواجي وقلت لك إنني لا أحب الخداع.. هل فهمت ما أعنيه وقتها؟

قلت في كياسة محاولًا أن أبدو رقيقًا:

- بالطبع فهمت..

همس بصوت رصين يضغط على كل حرف من كلماته:

- لقد أحببت تلك الفتاة كثيرًا.. ولأنني أحببتها قمت بإجراء التحليلات اللازمة وكانت النتيجة واضحة: من المستحيل أن أكون أبًا ولا زوجًا.. ولأنني أحببتها كثيرًا أخبرتها بكل شيء.. فاختارت الانفصال لأنها لن تتخلى أبدًا عن حلمها بالأمومة وهذا سلوك شريف منها بالطبع..

هل كان يبكي؟.. لا أدري حقًا لكن غمامة ما تسربت إلى نبراته وهو يستطرد:

- هكذا ترى.. لن أمشي أبدًا في الشارع ممسكًا بيد صغيرة مرتجفة لطفل أعرف أنه من صلبي، ولن أهرع في الليل باحثًا عن طبيب توليد أو طبيب أطفال، ولن أعود لداري حاملًا دمية لطفلة تنتظرها في لهفة.. لقد تساوت الأنصبة في الحياة

كالعادة.. فالثرى الوسيم الناجح لا ينجب.. وهو يتمنى أن يبادل وضعه مع البواب النوبي العجوز..

لا داعي للقول أن أحدًا من أسرتي لا يعرف هذا الموضوع، وهم جميعًا يظنون أنني أرفض الزواج من ابنة خالتي لأنني أحيا حياة عزاب ماجنة.. وكلهم قاطعوني أو عاملوني بجفاء لكني لم أجرؤ على إخبارهم بالحقيقة قط..

واستدار لي راسمًا ابتسامة مفتعلة:

- ولكني قلت لك من أنا.. إنني أفتش عن المستحيل وغير الممكن.. أهيم حبًا بشيء لم يخلق بعد.. ولهذا غدا نبات الـ (موكاسا) هو ابني الشرعي..

لم لا؟.. لقد ربيته وعلمته وأطعمته.. فهل تعرف شيئًا في كل هذا لا يمارسه الآباء؟.. ولأنه ابني فأنا لن أتخلى عنه.. ولأنه ابني أداري عيوبه وأجاهد كي أصلحها.. ولأنه ابني فلن أسمح لأحد أن يقاسمني فيه أو يأخذه مني أو ينصحني بتدميره!..

ساد الصمت القاعة سوى من موسيقا (بتهوفن) الشجية..

قلت له بعد ثوان وأنا أشعل سيجارة:

- وإلى متى يظل هذا الوضع؟.. متى تنشر أبحاثك إذن؟

- حين أعرف كيف يمكن الاستفادة بما عرفته..

- وأية فائدة ترجى من نبات يعض الضيوف؟.. إنك لن تستخدمه لحراسة

البيوت على ما أظن..
ضحك حتى أدمعت عيناه.. ورشف ما تبقى في كأسه من العصير ثم قال:
- ألم تعرف هذا بعد؟.. لقد أنقذني من لصين!..
-................؟!
- بالفعل.. إن للنبات رائحة غير محسوسة لكنها جذابة تغري الآخرين بالاقتراب منه - ولعل هذا هو ما دفعك نحوه لا شعوريًا في تلك الليلة - وكان هذا هو ما حدث للصين اللذين اقتربا منه أكثر من اللازم و.. هوب... أنا لم أر شيئًا.. فقط سمعت صرخة رعب هائلة في تلك الليلة فهرعت إلى الحديقة لأرى رجلين يهرعان فرارًا ويثبان من فوق السور.. وحين

ذهبت إلى مكان النبات وجدت آثار دماء على الأرض وجزئًا منتزعًا من ذراعه التي مدها ليجذب أحدهما، فلو لم يكن الآخر موجودًا لكانت مأساة..

وانفجر يضحك حتى تقطعت أنفاسه:

- تصور ما شعره هذان اللصان البائسان وما يفكران فيه حتى هذه اللحظة!!.. أنت لم تقل شيئًا جديدًا حين قلت إن الـ (موكاسا) يصلح لحراسة البيوت..

ثم إن (عماد) نهض إلى دولاب أنيق موجود بالقاعة، فأخرج جهاز عرض سينمائي للأفلام الصغيرة (١٦ مم)، وبكرة فيلم.. ثم وصل الجهاز بالقابس وركب الشريط وأظلم القاعة..

سمعت صوته في الظلام وراءه خلفية من سيمفونية (بتهوفن) التي لن تنتهي أبدًا كما هو واضح:

- المشكلة هي أن هذا النبات خجول جدًا!

- خجول؟..

- هو يتصرف كطفل يأبى أن يغني أمام أصدقاء أبيه.. ولقد رفض الـ (موكاسا) كل محاولاتي لتقديم فرائس حية له، لكني كنت أجده قد فرغ منها دائمًا حين أعود إليه بعد دقائق.. لهذا قمت بتصوير هذا الفيلم - دون علمه - لأرى ما يفعله حين يرى أرنبًا صغيرًا.. ولسوف ترى الآن كل شيء..

بدأ الفيلم يدور.. انبعث الشعاع تتراقص فيه دقائق الغبار ودخان التبغ ليرتمي فوق الحائط الأبيض..

وعلى الشاشة المرتجلة رأيت مشهدًا بالأبيض والأسود يمثل هذا النبات بشكله العجيب البشع.. وكان هناك أرنب صغير وديع يقف جوار الأصيص غير قادر - وغير راغب - على الابتعاد..

وهنا بدأت الأوراق ترقص رقصتها المجنونة التي ألفتها.. تهتز.. تتمايل.. تتأرجح يمينًا ويسارًا..

قال (عماد) معلقًا على المشهد:

- وكما ترى.. هذا نوع من التنويم المغناطيسي للضحية.. فهي تباغت بالحركة غير المتوقعة وتقرر أن تنتظر ساكنة لتعرف أكثر...

الذراع الكابوسي العتيد يخرج من بين الأوراق كثعبان يزحف نحو فريسته..

- هذا النوع من الأوراق المتحورة يخرج نحو الفريسة ليؤدي دورين..
الذراع يزحف نحو الأرنب البائس ليلتف حول عنقه.. يحاول الأرنب أن يتراجع.. يتقهقر.. يقوم بحركات مثيرة للشفقة.. ولكن..

- الدور الأول هو تخدير الفريسة بمادة راخية للعضلات عديمة الاستقطاب.. ولعلها هي (الكورار) كما خمنت أنت..
الأرنب يتصلب.. ثم يتخاذل تمامًا بعد أن شلت عضلاته الإرادية تاركًا جسده تمامًا للذراع المشئوم يتلمسه ويقلبه يمينًا ويسارًا..

- أما الدور الثاني فهو.....
وهنا لم أصدق ما أراه..



الذراع يزحف نحو الأرنب اليائس ليلتف حول عنقه .. يحاول
الأرنب أن يتراجع .. يتقهقر .. يقوم بحركات مثيرة للشفقة ..

تصلبت على حافة مقعدي وأنا أرى شيئًا أسود يتسرب عبر العروق البارزة من ذراع النبات صاعدًا من جسد الأرنب إلى جذع النبات، وبعين الخيال ترجمت هذا اللون الأسود إلى أحمر..

- يقوم الذراع بامتصاص دماء الفريسة ببطء شديد..

وفي اللحظة التالية رفع الذراع جثة الأرنب ليلقى بها بين الأوراق السوداء المكللة بالأشواك.. وانطبقت الأوراق حول الجسد وأخذت تأتي بحركات شبيهة بالمضغ البطيء المتلكئ..

- والآن.. المرحلة التالية هي مرحلة الافتراس الشبيهة بأسلوب نبات الـ (ديونيا).. إنزيمات الـ (ببسين) تذيب

العضلات والأوتار والغضاريف.. فلا يبقى سوى.. عجينة من الفراء المختلط بالعظام هي ما تحول إليه هذا الكائن الوادع الذي كان يلهو ويمرح منذ دقائق..

- وهكذا حصل هذا النبات النشط على حاجته من (النتروجين) ومن مادة (الهيموجلوبين).. وأثبت لنا أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية..

بدأت الخدوش تتكاثر على الشاشة أي أن نهاية العرض قد دنت ثم ابيضت تمامًا.. وسمعت (عماد) يهتف في مرح:

- ألم يكن هذا رائعًا؟!

ما أن استعدت قدرتي على الكلام حتى هتفت مستنكرًا:

- (عماد)!.. إن هذا ليس نباتًا.. إنه شيطان حقيقي وعليك أن تتخلص منه فورًا!
- قلت لك إنه ابني!..
- أتوسل إليك يا (عماد).. أنا لا أمزح.. إن هذا المسخ سيقتلك يومًا ما تاركًا بعض الشعر الأشيب وروبًا أنيقًا..
ابتسم في ثقة ونهض ليبدل الأسطوانة ويضيء الأنوار:
- الآن حان وقت (موتسارت).. دعني أؤكد لك يا عزيزي (رفعت) أن هذا النبات أذكى من أن يؤذي راعيه رقم واحد.. ويعرف أنه كان روحًا حبيسة في بذور فأطلقت سراحها ومنحتها كيانًا.. إن (بابا) يقدم له اللحوم الطازجة والحيوانات البرية ويحجب عنه المتطفلين.. فكيف يؤذيه؟!..

نظرت إلى الدولاب نصف المفتوح من خلفه.. وسألته في براءة:

- أرى لديك المزيد من الأفلام.. فماذا تحوي؟

بدا عليه الوجوم فأدركت أنه سيكذب.. حتمًا سيكذب..

- لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.. مجرد ذكريات لا تعني شيئًا..

....

وذابت عيناه في الفراغ..

* * *

٦ - قريتي من جديد..

دوى رنين الهاتف الطويل المتقطع فهرعت لأرد لاهث الأنفاس.. واجف القلب.. حافي القدمين.. واثقًا من المصيبة التي ستأتيني عبر سلوك هذا الجهاز المزعج..

سمعت صوت الطقطقة ثم الصفير.. ثم صوت (رضا) أخي يصيح:

- (رفعت).. (رفعت).. إن أمي..!..

ثم تلاشت حروفه في عواء كعواء الذئاب فأدركت أن البكاء غلبه.. ولم أحتج لكثير من الذكاء كي أعرف ما يريد قوله، لكن واحدًا كان يقف بجواره تناول منه السماعة

ليقول لي بلهجة حازمة - لهجة الرجل الذي يعرف ما ينبغي عمله - ما كنت في غير حاجة لسماعه:

- د. (رفعت)؟

- بالطبع - عليك اللعنة - وإلا فمن أنا؟

- إن الحاجة (أم رضا) قد.. صبيحة اليوم.. نحاول من فترة.. الخطوط.. أنت رجل ناضج.. أخوتك.. الجنازة.. إلخ.. إلخ..

كان الوغد قاسيًا.. قاسيًا إلى حد لا يوصف..

تمهل قليلًا أيها الشيطان.. فأنت لا تخبرني بنتائج مباريات كأس العالم.. بل أنت تخبرني بوفاة أمي.. أمي.. ولكن.. لماذا لا أشعر بالأسى ولا الذعر

المتوقعين؟.. لابد أن قلبي لم يصله الخبر من عقلي بعد بسبب رداءة التوصيل عبر الخطوط الهاتفية.. ويل لك يا قلبي البائس حين تعرف الحقيقة كاملة.. وهي أنك - للمرة الأولى - قد غدوت بلا أم..

نعم أنا رجل ناضج متعلم في منتصف العقد الخامس.. ولكن ما علاقة كل هذا بالحزن؟

الحزن البارد الصارم الذي يحيل كل الناس أطفالًا..

والرجل ما زال يتكلم....

*   *   *

رحمة بأعصاب القارئ سأقاوم رغبتي الشديدة في وصف كل ما حدث وكل ما

قيل.. لأننا نقرأ كتابًا اسمه (أسطورة النبات) وليس (آلام رفعت).. ولا أحسب أن أحزاني تهم شخصًا غيري..

إن هناك لذة شديدة في وصف الأوجاع لدى كل البشر، يكفيك أن تجلس جوار أي رجل في الحافلة كي يبدأ في وصف صداع رأسه ومشاكله مع التبرز وآلام النقرس في إصبع قدمه اليمنى..

إنها غريزة كاسحة لكني - لأجلكم - سأقاومها..

فقط تذكروا أنني فقدت أمي في عام ١٩٦٨ حين كنت أنا في الرابعة والأربعين من عمري..

* * *

مرت أيام طوال علي في (كفر بدر)..
أقابل عشرات الوجوه.. وأصافح مئات الأيدي وأرى اللون الأسود في كل مكان.. وأزجر (رئيفة) و (نجاة) لأمنعهما من النواح مائة مرة في اليوم[3].. إن تلك الأخيرة لا تشعر بذرة حزن لكنها قواعد المجاملة الصارمة في الريف التي تحتم على النساء إطلاق بعض الصرخات من حين لآخر والا اعتبرن قليلات الأصل..
في تلك الظروف لا أدري لماذا - ولا كيف - تذكرت (عماد)..
وتساءلت عما يفعله في هذه الآونة مع نباته.. ثم أنني أقصيت الخاطر بعيدًا إذ بدا لي غير ملائم على الإطلاق..

* * *

كعادتي كنت أتذكر الأسماء بصعوبة خارج دائرة أسرتي، وكان (طلعت) يقدم لي عشرات الأشخاص طيلة الوقت بأسلوب يوحي بأنني أعرفهم وصريع في غرامهم.. وأنا لا أذكر أنني رأيتهم أصلًا..

اليوم قدم لي الحاج (فوزي) وولده (صالح) المفترض أنهما جيراننا من زمن، من ثم صافحتهما في حرارة وشكرتهما على مشاركتهما في مأساتي، وجلسنا نحسو القهوة ونصغي لآيات القرآن الكريم.. حين قال الحاج (فوزي) وهو يضع فنجانه في الطبق:

- أمس قابلناك يا د. (رفعت) في الحقل الشرقي.. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا.. لعلك لم ترنا قط..

- معذرة.. ولكن لابد أن هناك خطأ..

- لا خطأ هنالك.. كان ذلك في العاشرة مساء..

قلت في شيء من نفاد الصبر:

- أنا لم أغادر الدار مساء أمس لحظة واحدة..

تبادل الحاج وولده نظرات معناها – بما لا يقبل الشك - أنني أكذب لسبب لا يدريانه.. وأن من الحكمة عدم الإصرار على ما قالاه..

من ثم أشعل الحاج السيجارة التي قدمتها له.. وغمغم متحاشيًا النظر إلى:

- يجوز..

قال (طلعت) مؤمنًا:

- إن العين تخطئ..

أما أنا فلم أعط اهتمامًا كبيرًا لهذه النقطة خاصة وأنني واثق تمامًا في أنني لم أفعل، فلست مسئولًا عن أوهام هذا الحاج البصرية وولده..

لكنني بدأت أشعر بالقلق في تلك الليلة حين خرجت مع (طلعت) إلى الحقل الشرقي ليريني المزروعات الجديدة التي استحدثها ويحاول إنجاحها، ذلك الموضوع الذي ظن أنه سيرفه عني قليلًا رغم أنه لا يعنيني على الإطلاق..

وهنا توقف في حيرة وجثا على ركبتيه ليتفحص شيئًا ما وجده على الأرض..

وسمعته يغمغم:

- ما هذا..؟

ومد يده ينتزع نباتًا وجده بين سيقان النباتات الأخرى.. وأعطاه لي لأتأمله.. وقال وهو ينهض:

- هذا نبات شيطاني لم أره من قبل.. غريب!.. أقسم أنه لم يكن هنا البارحة..

أما أنا فما أن أمسكت بالنبات بين أناملي حتى توترت.. مددت يدي إلى جيب السترة بحثًا عن نظارة المسافات القريبة (التي بدأت استعمالها هذا العام) ووضعتها على أنفي.. نعم.. أنت ترى مثلي تلك الأوراق السوداء ذات الحواف الدامية المجللة بالأشواك.. أنت مثلي تقشعر من الملمس

الكريه.. وأنت مثلي لم تنس هذا النبات رغم طول المدة..

إنه هو!..

هو (الموكاسا نيجرا) بعينه ولاشك في ذلك..

أما كيف جاء هنا.. وكيف نما بهذه السرعة؟.. فكلها أسئلة بلا إجابة ولا أتوقع لها إجابة..

المهم أنني و (طلعت) شرعنا ننتزع هذه الأوراق الشنيعة من جذورها.. وكدنا نكتفي بذلك لولا أنني طلبت منه رجاء حارًا أن يساعدني على حرقها.. ولم أفسر له طبعًا سبب حماستي..

وبالفعل سكبنا بعض (الكيروسين) فوقها وأشعلنا عود ثقاب، وجلسنا في ظلام الليل

نتأمل الوهج المتراقص زائغي الاعين..
وما أن انتهى الوهج ولقت الجذوة مصرعها.. حتى مد (طلعت) يده وسط الرماد الساخن والتقط بحذر شيئًا ما بين إبهامه والسبابة:

- يا لغرابة هذه البذور!

قالها وناولها لي فتأملتها في كفي..

كانت ذهبية اللون خشنة الملمس أقرب - في الحجم والشكل - إلى حبوب (البازلاء) لكنها خشنة كما قلت ممتلئة بالبثور.. وكانت صلبة إلى حد لا يصدق.. حتى حين ضغطت على واحدة منها بين أسناني (وعضلات الفك بالمناسبة هي أقوى عضلات الجسم) لم أجد أدنى استجابة منها..

لن يدهشني أن تقاوم هذه البذور لهيب النيران..

- إذن كيف نتخلص منها؟

- سنلفها في شريحة من القصدير وندفنها بعيدًا..

نهض (طلعت) يبحث عن قصدير في حين أخذت أحفر الأرض في موضع جذور النبات مدفوعًا بخاطر مفاجئ داهمني.. وسمعت صوته الغليظ يتساءل من وراء ظهري:

- عم تبحث يا دكتور؟ عن.. ها هي ذي!.. لقد وجدت ما أريده..

اقترب ليرى ما هنالك على ضوء القمر الفضي.. وتساءل في حيرة:

- غريب!.. من فعل هذا؟

- فعلها من زرع الحبوب..
- يدفن جثة قطة؟.. يا له من عمل غريب...
- إنه يعرف ما ينبغي عمله.. هذا هو كل شيء..
- تعال يا دكتور لنعد للدار.. لقد تشاءمت من هذا الذي رأيناه وإن كنت لا أرى لذلك سببًا..

نفذت طلبه في صمت بعد أن تخلصنا من البذور.. ولم أصارحه أنني أنا الآخر قد تشاءمت.. وأنا الآخر لا أرى لذلك سببًا..

* * *

عدت إلى غرفتي بالطابق العلوي وقد جاوزت الساعة منتصف الليل..

ذات الفراش المتهدم الذي ظللت مصلوبًا عليه أسبوعين يوم نادتني النداهة.. الفارق الوحيد هنا هو أن أمي لن تحضر لي العشاء وتلومني على إجهاد عيني بالقراءة أو عدم الزواج أو.. أو..

خلعت ثيابي واخترت جلبابًا أبيض مريحًا لأنام فيه، وهنا استرعت انتباهي أجسام غريبة صلبة في جيب قميصي العلوي.. فمددت يدي أتفحصها..

كانت بذورًا.. بل بذورًا ذهبية اللون.. وللمزيد من الدقة بذور نبات الـ (موكاسا نيجرا)..

من أين جاءت هذه الأشياء؟

قد يقول قائل إنها البذور التي وجدتها و (طلعت) في الحقل هذا المساء.. لكن لا..

لقد وجدنا اثنتي وعشرين بذرة تأكدنا بعناية من دفنها بعد تغليفها في غلاف يمنعها من الإنبات.. لا يمكن أن تكون هي..

لقد كنت أرتدي هذا القميص حين جئت للقرية، وكنت أرتديه حين زرت (عماد) في المرة الأخيرة (أعرف أن ياقته اتسخت لكني لا أعبأ بهذه التفاهات).. معنى هذا أن هذه البذور جاءت معي حين جئت للقرية..

❋ ❋ ❋

أمس قابلناك يا د. (رفعت) في الحقل الشرقي.. ناديناك لكنك لم تصغ إلينا.. لعلك لم ترنا قط..

* * *

هل هما على حق؟..

لو كانا على حق فإن هذا له معنى واحد.. أنني أنا من بذر البذور في الحقل الشرقي مسلوب الإرادة منومًا مغناطيسيًا..

وبالتأكيد أكون أنا من دفن القطة ليوفر (النتروجين) اللازم للبذور.. ومن يدري؟.. ربما أنا من قتلها كذلك!..

ولكن كيف؟.. ولماذا؟

القشعريرة من المجهول - تلك القشعريرة السرمدية - تتسلق عمودي الفقري، وعدم الفهم الممتزج بالغباء يطل من عيني..

لماذا فعلت ذلك؟.. وأية قوى مجنونة حركتني؟

هذه المرة ارتديت الجلباب الأبيض، وهرعت خارجًا من الدار قاصدًا الحقل الشرقي بحثًا عن آثار تدلني على أنني من بذر البذور..

وفي الظلام غير الدامس - حيث كان القمر مكتملًا - رأيته منحنيًا على الأرض يحفرها بأظافره في لهفة وعيناه زائغتان..

دنوت منه في حرص.. ووقفت أمامه بضع ثوان فلم يلحظ وجودي..

كان هذا هو (طلعت)..

لقد عاد إلى الحقل خلسة ليسترد البذور التي دفنها بنفسه منذ ساعة**!!**

❋ ❋ ❋

٧- كابوس..

وهكذا جذبت (طلعت) من ذراعه المشعر الضخم عائدين إلى الدار..، وفهمت منه - رغم عجزه عن التعبير - أن رغبة ملحة استبدت به كي يأتي بهذا العمل..

لقد اتضحت الصورة إذن..

هذا النبات قد فاق كل ظنوني وتوقعاتي..

إن شيئًا ما فيه - ربما رائحة معينة - تحمل رسالة صامتة إلى كل من يتعامل معه.. وهذه الرسالة تقول بوضوح:

- ساعدوني على التكاثر!

ويكون لهذه الرسالة مفعول السحر.. فسرعان ما يحمل المرء بعض البذور

ولربما قتل حيوانًا صغيرًا كي يدفنه جوارها، ويتسلل في ظلام الليل ليبذر البذرة المشئومة..
البذرة التي تصحو بعد يوم واحد فحسب، وتبحث عن أحمق تحيطه بذراعها كي تحقنه بـ (الكورار) وتمتص دمه!
قصد..
هكذا تستمر الدورة الشيطانية التي بدأها (عماد) دون قصد..
وحتى (عماد) نفسه لا يدري أنه لا يحب هذا النبات قدر ما هو مسحور به.. وهو ينشر بذوره بنشاط في كل مكان - ولربما هو من دسها في جيبي - لأنه لا يملك سوى فعل ذلك..
لقد استعبده النبات تمامًا..

بل واستعبدني واستعبد (طلعت)..
ولكن.. هل هناك آخرون؟!

* * *

تلقيت الجواب في المساء ذاته.. مساء اليوم الذي وجدت (طلعت) في الحقل عند الفجر..

كنت جالسًا في مدخل الدار مع رجلين أو ثلاثة (فقد بدأت أعداد المعزين تنحسر) وكنا نرشف القهوة وندخن، حين هرع رجلان إلى الدار داخلين من الباب المفتوح..

كانا يلهثان ممتقعي الوجهين ولسان حالهما يقول إن هناك كارثة..

- د. (رفعت).. نحن بحاجة إليك فورًا..

- ولكن........
لكنهما لم يكونا على استعداد لقبول أعذار، وقد نظرا إلى الرجلين الجالسين معي في لهفة مرددين:
- لا مؤاخذة يا رجالة.. إن الفتاة تموت!..
وهكذا لم يعد أمامي مناص من الاستجابة، أحضرت حقيبتي وأخبرت (رئيفة) أنني ذاهب.. ثم فتحت لهما باب سيارتي كي يركبا..
وانطلقنا ـ بسرعة البرق - إلى الدار..
من اللحظة الأولى سقط قلبي في قدمي حين سمعت الصراخ والعويل ثم أدركت أن المريضة لم تمت بعد لكنهم يصرخون باعتبار ما سيكون!..
وبصعوبة اخترقنا الزحام..

إلى غرفة ضيقة حقيرة دخلنا لأجد فلاحة ممزقة الثياب والخدين تعول دون انقطاع، وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة في العاشرة من عمرها.. طفلة شاحبة كالبورص - إذا جاز التعبير - تجاهد كي تلتقط أنفاسها.. وأدركت أن فقر الدم هو السبب في عدم ظهور زرقة على شفتيها..

ما العمل إذن؟ إن الطفلة مريضة جدًا ولكني لا أجد لمرضها اسمًا..

- أين وجدتموها؟

لم ترد الأم.. أما الأب فقال في هستيريا:

- في الحقل منذ ساعة.. ألن تنقذها؟.. هيا افعل شيئًا!..

لم أرد عليه محاولًا استجماع تفكيري.. ليست هذه أعراض تكسير دم.. بل هي

أقرب إلى أعراض النزف.. ولكن من أين؟.. لا توجد فتحات نازفة في جسدها الصغير..



وعلى فخذيها أراحت رأس طفلة فى العاشرة من عمرها .. طفلة شاحبة كالبرَص ــ إذا جاز التعبير ــ تجاهد كى تلتقط أنفاسها ..

وهنا نظرت إلى ذراعها فوجدت.......

إنني أعرف هذه الثقوب وأذكرها..

أذكر جيدًا ذلك الذراع الذي ترك ثقوبًا مماثلة على ذراعي أنا..

إذن هي تعرضت لنبات (موكاسا) لا أدري كيف ولا أين ولا يهمني كثيرًا أن أعرف ولا وقت لهذا..

سأفترض أن هذه حالة (أنيميا) حادة مصحوبة بـ.. بتسمم مادة شبيهة بـ (الكورار).. المادة التي يحاول النبات شل عضلات فرائسه بها.. وهذا يعني أنها مادة مرخية للعضلات عديمة الاستقطاب.. كذا قال (عماد)..

فلتساعدني السماء.. إنني مقبل على أكبر مقامرة في حياتي وهي إعطاء علاج لمادة

لا أعرف حقيقتها تمامًا سوى بالحدس
تناولت أمبولًا من (الأتروبين) - كأي طبيب تخدير محترف - وحقنت به الفتاة، ثم عبأت أمبولًا من مادة الـ (نيوستجمين) وبدأت إعطاءه ببطء شديد وريديًا.. فهذه المادة هي الترياق الوحيد لمادة الـ (كورار)..
للأسف لا أذكر حساب الجرعة للأطفال بالضبط.. لكني سأعطيها نصف الأمبول..
فما أن انتهيت حتى أطلقت الطفلة شهقة عالية.. وسكنت تمامًا!..
وسمعت الأب يصرخ في لهفة:
- لقد ماتت يا دكتور!.. قتلتها الحقنة!!

* * *

أخيرًا عاد قلبي يمارس عمله الذي ظل يؤديه أربعة وأربعين عامًا ولم يتكاسل عنه سوى مرات معدودة آخرها هذه المرة!..

لقد بدأ تنفس الطفلة ينتظم بعد أن استعادت عضلات صدرها القدرة على الحركة.. الشيطانة!.. كادت تقتلني قتلًا..

لم يروا توتري ولا لهفتي لأنهم كانوا يرمقون المشهد في خشوع..

وأخذت الأم تحتضن الطفلة دامعة العينين..

فما أن استعادت حنجرتي القدرة على إخراج الأصوات، حتى قلت في حزم:

- لم ينته الأمر بعد.. إنها تحتاج إلى الدم سريعًا.. يجب أن ننقلها إلى المستشفى..

وفي لهفة حملنا الطفلة إلى سيارتي، وشرعنا ننهب الطريق إلى المدينة قاصدين المستشفى.. وبالطبع - نظرًا لنحسي التقليدي - وجدنا أن الفصيلة الوحيدة التي توافق فصيلة الطفلة هي فصيلتي!..

فكان أجري على الفحص هو استنزاف دمي، ثم بالطبع نسي أهلها في غمرة الأحداث أن يسألوني عن أجري وخجلت أنا من مطالبتهم به.. إنهم أهل قريتي وهذا حقهم الطبيعي..

لقد تحسنت الفتاة وهذا يكفيني..

لكنني لست مطمئنًا تمامًا لما حدث.. ومن حقي الطبيعي بدوري أن أعرف كيف وصلت هذه الطفلة إلى النبات، أو - بمعنى أدق - كيف وصل النبات لها؟!

* * *

قال لي عم الطفلة وهو يقدم لي سيجارة..

- ثق يا دكتور أن جميلك في أعناقنا إلى الأبد..

فأدركت أنني لن أنال أجرًا منهم إلى الأبد!..

لا بأس.. المهم الآن يا عمها أن تخبرني بالمكان الذي كانت فيه حين وجدتموها.. وهل حقًا لم تروا ما يريب مثل نبات مفترس أو شيء من هذا القبيل؟..

إن حالة الفتاة لا تسمح بأية أسئلة..

كنا نسير بين النباتات في قطعة الأرض الخاصة بتلك الأسرة، ورأيت الرجل يشير إلى بقعة معينة ويغمغم:

- هنا وجدناها بعد أن سمعنا صراخها..

- ولم يكن هناك شيء معين يلمسها؟
- لا..
وكان ما أبحث عنه موجودًا..
الأوراق السوداء المشئومة بحوافها الحمراء المجللة بالأشواك كأنما تنتظر من يوقعه حظه العاثر بينها..
ها هو ذا نبات (موكاسا نيجرا) القميء في هذا المكان الذي لم آت إليه من قبل وبالتأكيد لم يأت (طلعت) إليه..
إن معنى هذا هو أن العدوى قد انتشرت..
هناك آخرون يحملون البذور لينثروها هنا وهناك غير عالمين بحقيقة ما يفعلون..
- لم أر هذا النبات من قبل..
قالها الرجل وهو ينحني ليتفحص الأوراق السوداء، ثم إنه انتزعها من جذورها..

حزمة صغيرة يمكن جمعها في قبضة اليد - فقد كان النبات وليدًا - لكنها كادت تودي بحياة طفلة..

وفجأة سمعته يهتف في اشمئزاز، وهو يرمي بالنبات على الأرض:

- أعوذ بالله!.. ما هذا؟!

كانت قطرات من الدماء تتساقط من الجذور المنتزعة لتسقط فوق التربة فتبللها، إن الوحش لم يهضم وجبته الأخيرة بعد..

- هل هذه دماء؟

قلت له في كياسة وأنا أشعل سيجارة:

- بل هي إفراز طبيعي.. فقط دعنا نحرق هذا النبات الآن..

- ولمه؟

- إنه.. إنه يؤذي المزروعات مثله مثل (حامول البرسيم)..
وبدأنا نحرق هذا الشيء المقزز، وتكرر مشهد البذور الذهبية الباقية من احتراق النبات.. لكنني في هذه المرة كنت حذرًا، فاحتفظت بها كي أدفنها بنفسي (هذا بالطبع إذا لم أقم بزرعها عند أول سهو)..
وحين عدت لداري أخيرًا كنت قد بدأت أفهم أبعاد الكابوس..

* * *

الخميس الكبير للمرحومة أمي..
العادات المقدسة في الريف.. السلال الملأى بفطير الرحمة.. والمقرئون القابعون في المقابر ينتظرون قدومنا كي

ينقضوا علينا كالذباب ليقرأ كل منهم ما يحفظ من قران مقابل فطيرة..

أنا لا أتحذلق.. لكني أعتقد أن قراءتي سورة (يس) الحبيبة بصوت خفيض دامع عند قبر أمي هي أبرك وأقرب إلى التقوى من كل هؤلاء المتطفلين بقراءتهم المملوءة بأخطاء التجويد..

كانت نساء الأسرة يرتدين السواد والدموع، وجو الصباح النادي يبلل النباتات المحيطة بالقبر..

وكنت شاردًا بعيني بين تضاريس اللون الأخضر حين.....

حين رأيت أوراق (موكاسا) اللعينة تتراقص بين الأوراق الخضراء الأخرى**!**..

ببراءة تتراقص.. بجذل تتراقص.. كأنها -

الشيطانة - مجرد نبات بريء آخر له حق التمتع بالضوء والنسيم!..

لقد صار الأمر مملًا.. مملًا إلى درجة الابتذال..

ولم يكن باستطاعتي بالطبع انتزاع النباتات من على القبور، لأن هذه في عرف الريف جريمة لا تغتفر خاصة وأنهم لا يعلمون ان هذه النباتات تتغذى هنا على رصيد لا ينفد من الـ (نتروجين)!

لكنني قررت أن الوقت قد حان لتقديم إنذار جماعي.. صحيح أنهم لن يصدقوني وسأبدو لهم مجنونًا أو متحذلقًا.. لكنني - لو أحسنت اختيار أسلوبي - سأنجح في إفزاعهم إلى حد ما..

وكان موعدي بعد صلاة الجمعة في مسجد القرية..

بضع همسات مع الشيخ (زيدان) إمام المسجد.. ثم إنه أهاب بالقوم أن ينتظروا قليلًا لأن لدي ما أرغب في قوله، وكان بعضهم بالفعل قد حمل نعليه وكاد يسابق الريح لولا أن أثارت الدعوة فضوله..

- يا إخوان.. الدكتور (رفعت) ابن الحاج (إسماعيل) ابن القرية ولديه ما يريد إخباركم به.. فهلا جلستم وانصتم؟

تركزت العيون علي فابتلعت ريقي.. زاوية فمي اليسرى ترتجف رغمًا عني كعادتي حين أحاول ممارسة الخطابة التي لم أجدها يومًا..

تماسكت وفتحت لفافة أحملها من ورق الصحف.. وأخرجت منها النبات الأسود المشئوم.. وأمام العيون المتشككة رفعته..

بصوت متهدج في البدء هتفت:

- هذا النبات الغريب.. هل منكم من وجده في أرضه؟

تعالى صوت من الصف الأخير:

- نعم.. وجدته عندي..

صوت آخر غليظ:

- وأنا..

صوت مبحوح خائف..

- وأنا..

- وأنا..

- وجدته منذ ثلاثة أيام..

- أربعة..

قاطعت الأصوات رافعًا صوتي ليخترق الأسماع:
- اسمعوني يا إخوان.. هذا النبات ضار بالصحة ويسمم الأرض والبهائم.. لهذا أرجوكم.. على كل من يجده عنده أن يقتلعه ويجلبه لي لأقوم بإعدامه بطريقة نعرفها نحن..
تساءل أحدهم في شك خبيث:
- إذا كان كذلك.. لماذا لم تبلغنا (الزراعة) بذلك؟.. ولماذا لم تبلغها أنت؟
رددت في نفاد صبر (فأنا لا أحب الذكاء في غير موضعه):
- لأن الوقت لا يسمح بذلك.. نحن في خطر داهم وما لم تصدقوني فإن مواشيكم ستهلك وأطفالكم سيمرضون..

- فأل الله ولا فألك!
تنحنح الإمام في وقار.. وأمن على كلماتي داعيًا القوم إلى الاستجابة.. وإلى إحضار نباتاتهم لي في الدار.. ثم دعا لهم وترك لهم حرية الانصراف..
فما أن خرجت من المسجد - مع (رضا) و (طلعت) - حتى قابلت مأمور المركز صديقي العتيد الذي عانقني بحرارة.. ثم هتف مستنكرًا:
- ما هذا الذي قلته يا (رفعت)؟
- قلت ما أخشاه..
- لكنك بهذا تحدث ذعرًا.. وما دام لم يصلنا شيء من الوزارة - وما دمت أنت لم تبلغها بشيء - فليس من حقك أن تعطي إنذارات..

وضعت يدي على كتفه محاولًا إشعاره بخطورة ما أقول؟

- اسمعني يا عزيزي.. إن (البيروقراطية) المصرية هي بناء شامخ من أيام الكاتب المصري الجالس القرفصاء وحتى اليوم.. وليس لدي وقت ولا عمر يسمح لي بمواجهتها.. لقد اخترت الحل الأسرع وأعتقد أن جزءًا كبيرًا من العبء سيقع على كاهلك لأني عائد للقاهرة اليوم..

- تشعل النار وتتركني أطفئها وحدي؟!

- لا بد لي من ذلك.. إن الرجل الذي بدأ هذا الكابوس موجود في القاهرة.. ولابد أنه يملك مفتاح إنهائه..

- ترحل هكذا سريعًا؟

- إن لي عشرة أيام في القرية.. وقد هدأت النفوس أخيرًا..

- ولن تحكى لي تفاصيل ما قلته في المسجد؟

- فيما بعد يا صديقي العزيز.. فيما بعد.. فقط أوصي الخفراء أن يفتشوا المزروعات جيدًا بحثًا عن هذا النبات ذي الأوراق السوداء وقل لهم أنه نوع من المخدرات ليبحثوا عنه في جدية.. فإذا ما جمعت كمية كبيرة منه عليك بدفنها في أعمق حفرة ممكنة بعد أن تغلفها بالقصدير أو تضعها في صفائح مغلقة..

كان رأسه مفعمًا بالأسئلة، لكنني لم أعطه فرصة، ولعل غموض الطب والكهنوت المحيط به هما من يحميان الطبيب من

الفضول الزائد.. فقد قال لنفسه أن النبات سام وهذا كاف فلا داعي للمزيد من الاستيضاح..

وفي المساء ركبت سيارتي عائدًا إلى القاهرة تاركًا الكارثة التي جلبتها للقرية كي تتولى الأقدار علاجها..

* * *

كان كل شيء في شقة (الدقي) كما تركته حين تلقيت المكالمة اللعينة.. فقط كان هناك خطابان في صندوق البريد من أشخاص لا أذكرهم يلومونني على أشياء لا أنكر أنني فعلتها.. كما كان هناك حشد من برقيات التعزية استلمها جاري (عزت) نيابة عني، وكلها من أشخاص يزعمون أنهم

(يشاطرونني الأحزان) على وفاة أمي فلاحة (كفر بدر) التي لم يرها أحدهم..
لحسن الحظ أن جهاز الرد على المكالمات لم يكن معروفًا وقتها وإلا لقضيت ساعتين أصغي إلى هراء..
استبدلت ثيابي بثياب غير ملوثة بالعرق.. وفتحت الكيس الذي أصرت (رئيفة) على أن أحمله معي.. وبالطبع كان يحوي بعض الفطير المشلتت والجبن المملح.. ثم البطة.. البطة العتيدة الأبدية التي لا بد لمن يعود من زيارة أهله بالريف أن يحملها..
لا بأس.. لا بأس على الإطلاق..
ليذهب (الكوليسترول) إلى الجحيم، هو ونصائح د. (عزام) أخصائي أمراض القلب الذي يعالجني.. ولئن قتلتني الذبحة

الصدرية فلأذهبن إلى القبر حاملًا بطة في شراييني التاجية..

جلست إلى المائدة ألتهم البطة عازمًا على أن أترك أكثرها لغداء باكر..، وعازمًا على أن أتصل بـ (عماد) بمجرد أن أغسل يدي..

ثم إنني نهضت إلى الهاتف وطلبت رقمه.. صوت الرنين المتقطع.. دون رد..

حقًا لا رد..

إذن سأحاول الاتصال به غدًا.. أما الآن فالنوم ولا شيء سواه.. ولا بأس بتفاحة قبله..

دخلت غرفة النوم.. بدأت استبدل ثيابي متذمرًا من رائحة الجو الخانقة التي سببتها الحاجة للتهوية.. اتجهت إلى مصراعي

الباب المطل على الشرفة وفتحتهما لأسمح لهواء الليل العذب بالدخول..
غريبة هذه الرائحة.. أكاد أقسم أنني شممتها في مكان ما..
ما علينا.. وضعت التفاحة والسكين جوار الفراش فقد فقدت شهيتي..
أطفأت الأنوار وتمددت في الفراش شاعرًا به يعلو ويهبط من الإرهاق ورحلة السيارة الطويلة..
ذكريات النهار تتوالى على شاشة العرض السوداء المعلقة في فراغ الغرفة..
ومن الغريب أنني لم أستطع النوم..
ذلك الهاجس العجيب - الذي رافقني في كل حكاياتي - يهزني وينهاني عن الاستسلام للنعاس:

- لا تنم!.. لا تنم!..
- ولماذا أيها المزعج؟
- لأنك لو نمت.. لا أدري بالضبط.. لكن لا تنم!.. إبق متيقظًا بضع دقائق فقط..
وهنا..!..
في البدء ظننتها ذبابة.. ثم صارت اللمسة الباردة أكثر ثقة واسترخاء حول عنقي فحسبتها سحلية تسللت بشكل ما إلى فراشي.. اقشعر جسدي ومددت يدي إلى عنقي لأبعد هذا الشيء البشعٍ..
وهنا ازداد الشيء تشبثًا.. وشعرت بوخزات في عنقي، فأدركت الحقيقة المروعة في لمح البصر.. ونهضت من رقدتي كمن مسه تيار كهربي..

كانت ذراع نبات الـ (موكاسا) تتسل من الشرفة قاصدة فراشي..
وفي هذه اللحظة بالذات كانت ملتفة حول عنقي في تصميم!..
....

❋ ❋ ❋

٨- زائد عن الحاجة..

قال لي د. (لوسيفر) وهو يتأمل أوراق (التاروت) شاردًا:

- إن اللعبة معك يا د. (رفعت) ستكون سهلة جدًا.. فانت كهل وتعيش وحيدًا.. وضع ألف خط تحت كلمة (وحيدًا) هذه.. إنك لرجل مثقف وتعرف كل الأشياء غير السارة التي قد تحدث لكهل وحيد.. مثلك يا طبيبي العزيز! ".

من قصة (الأوراق المشئومة)
الكتيب رقم (٢٠)

* * *

هل صرخت؟

لا أذكر بالضبط.. ربما قد فعلت..

كل ما أذكره هو قرص (المنبه) الفوسفوري يشير في الظلام إلى أن الساعة الثالثة بعد منتصف الليل..

كنت غارقًا في العرق البارد أحاول بعنف انتزاع عنقي من الذراع الأخطبوطي..

الأسوأ هو أنني كنت أعرف أن كل دقيقة تمر تملأ دمي بالمزيد من ذلك السم النباتي الشبيه بـ (الكورار).. وهذه المرة لن أجد من يحقنني بال (نيوستجمين) بل سأصير خرقة لينة يفعل بها النبات ما يشاء..

هل هو كابوس؟..

إن التهام البط على العشاء خطأ قاتل.. لكن لا.. هذا الذراع حقيقي ووخزاته حق لا مراء فيه.. فليس من الحكمة أن أقنع نفسي أنه كابوس..

وهنا تذكرت..

التفاحة والسكين جوار الفراش على (الكومودينو) حيث تركتهما.. إذن سأمد يدي لألتقط السكين.. ها هو ذا.. لا وقت للخطأ..

وبيد مرتجفة مددت يدي نحو الذراع.. إنه قاس صلب لكني - كذلك - قاس صلب..

هان!.. هان!.. السكين تحش النسيج النباتي في قسوة.. والآن ها هو ذا يتمزق.. يلين.. يتراخى حول عنقي..



إذن سأمدّ يدى لألتقط السكين .. هاهو ذا .. لاوقت للخطأ ..

ومددتُ يدى المرتجفة نحو الذراع ..

مددت يدي وانتزعته من حول عنقي.. ثم أضأت الأباجورة، فوجدت باقي الذراع المقطوع يتلوى محاولًا الوصول إلي لولا طول المسافة..

- أيها الشيطان!!

لكني اطمأننت حين وجدت أن هذا الجزء لا يحوي ممصات.. فقد تركها كلها في الجزء الذي قمت ببتره..

نهضت من الفراش راجف القدمين وهرعت إلى زجاجة الـ (نيتروجلسرين) الحبيبة فدسست قرصًا تحت لساني.. ثم أضأت نور الغرفة وخرجت إلى الشرفة غير عابئ بالذراع الذي أخذ يتحسس كاحلي في جشع ويحاول تسلق سروال منامتي..

وفي الشرفة وجدت الأصيص..
أصيصًا كبير الحجم به نبتة يتجاوز ارتفاعها مترًا من الـ (موكاسا)..
ومن الواضح تمامًا أنني من وضع هذا الأصيص هنا ثم نسيت كل شيء عنه.. لقد فعلت هذا قبل سفري بالتأكيد ضمن حملة (نشر النبات) التي تزعمتها رغمًا عني.. وكاد هذا يكلفني حياتي..
لقد وصل الـ (موكاسا) إلى غرفة نومي إذن.. وقمت باقتلاعه من جذوره ثم حملته في اشمئزاز - وهو يتلوى بتلك الحركة المتشنجة التي يتحرك بها ذيل سحلية بعد بتره - إلى غرفة مكتبي وأضأت الأباجورة وبدأت أتأمله بدقة للمرة الأولى..
كان قبيحًا لا شك في هذا..

ساق حمراء غليظة تخرج منها أوراق سوداء ذات حواف حمراء تجللها الأشواك.. بعض الفروع يحمل ثمرة صغيرة حمراء اللون بها تلك البذور الذهبية العجيبة.. وبعضها يحمل زهورًا - غريب هذا - حمراء اللون.. حاولت استعادة معلوماتي التشريحية عن (الطلع) و (المتك) و (الأسدية) لكني لم أميز أيًا منها في هذه الزهرة.. وكانت لها رائحة النبات المميزة..

أما أغرب ما وجدت فهو أن الذراع الذي يجذب الضحية مستقر بشكل زنبرك في تجويف بمقدمة الساق، وبالتالي يستطيع الانفلات في أية لحظة نحو الضحية..

كان مقطعة العرضي مستديرًا يحوي ثقبين - أدركت أنهما يمثلان قناتين واحدة منهما يحقن الـ (كورار) عبرها، وواحدة تمتص الدماء عائدة للنبات..

إنه لتركيب مذهل.. ومذهل هي أقل كلمة يوصف بها..

الحق أن (عماد) قد وجد ضالته المنشودة.. الحلم الذي روى نهمه الدائم إلى المعرفة.. إن روحه الجشعة التواقة إلى التميز قد نجحت في أن تضيف كابوسًا من نوع جديد إلى كل كوابيس الحياة..

أما الأكثر هولًا في هذا النبات فهو قدرته - غير المسبوقة - على التفكير.. والتخطيط.. والكذب... نعم الكذب..

لقد نجح في أن يتظاهر أمام (عماد) بأنه غير مفترس، ولم يتمكن (عماد) من تصوير الفيلم الذي رأيته إلا بعد أن ترك النبات وحيدًا..

حتى حين اكتشف أهل الطفلة اختفاءها.. ماذا وجدوا؟.. وجدوها راقدة شبه ميتة جوار نبات مسالم برئ المنظر..

نبات يقنع كل من يتعامل معه بأن يبذر بذوره خلسة.. بل ويوحي له أن الطريقة المثلى للزراعة هي دفن حيوان صغير تحت الجذور...

نبات يعرف أن طريقته الوحيدة للاستمرار هي الحفاظ على (عماد) لهذا لم يهاجمه ولم يؤذه بعد كل هذه الأعوام...

نبات ينتظر حتى تنام الضحية أو ينتظر حتى تكون الضحية بلا حول ولا قوة مثل تلك الطفلة البائسة..

❋ ❋ ❋

وهكذا أثبت النبات أنه يقف بالفعل عند مكان فاصل بين المملكتين الحيوانية والنباتية..

❋ ❋ ❋

لم أنم ليلتها..

ظللت أفتش الشقة باحثًا عن نبات وضعته هنا أو هناك.. وبالفعل وجدت أصيصًا في (السندرة) بدأ الكابوس ينمو فيه..

لما كان هذا النبات لا يعتمد على (الكلوروفيل) فسيان عنده إن كانت البيئة مشمسة أو مظلمة.. فهو لا يحتاج النور أساسًا..

وفي الصباح الباكر أدرت قرص الهاتف طالبًا (عماد).. لقد حان الوقت لإنهاء هذه المهزلة..

إن هذا النبات أخطر بالفعل من كل فائدة قد يقدمها للعلم.. يُقال اليوم - عام ١٩٩٣ - إن فيروس فقدان المناعة المسبب لمرض (الإيدز) قد ولد في أحد المعامل وفر منه.. لو كان هذا صحيحًا فإن العالم الذي أوجده لم يقدم خدمة كبيرة للبشرية.. وبالتأكيد لم يقدم (الديناميت) أو (القنبلة الهيدروجينية)

أو غاز (السارين) أية خدمة للبشرية مهما كانت عبقرية مكتشفيها..

الجرس يرن دون انقطاع.. ولا إجابة..

إن (عماد) لا يذهب إلى أي مكان.. على الأقل في السادسة والنصف صباحًا، ومعنى هذا أن هناك كارثة ما..

ارتديت ثيابي ملهوفًا وركضت إلى السيارة منطلقًا إلى (الزمالك)..

(الفيللا) تجثم في ضوء النهار المبكر كقصة مفزعة على رف مكتبة تدعوني إلى أن أفتحها وأقرأها رغم توجسي منها...

كانت البوابة مغلقة بالجنزير، من ثم هرعت إلى الغرفة الصغيرة المجاورة لها حيث يقيم البواب، وأوسعت الباب ركلًا وضربًا حتى انفتح عن وجه البواب النوبي

العجوز مرتديًا ثيابه الداخلية، متذمرًا من كل هذه الضوضاء..

- (عبد الودود)!.. افتح لي بوابة (الفيللا).. إن (عماد بك) لا يرد على الهاتف ويخيل لي أن شيئًا ما أصابه..

ما كاد الرجل يسمع ما قلت حتى هرع - دون أن يرتدي جلبابه - إلى الجنزير ليفتحه بمفتاحه وهو يتمتم:

- رأيته بالأمس.. وكان على ما يرام...

ودلفنا من البوابة.. لحظة تردد عابرة وهو يفكر هل من حقه اجتياز الحديقة؟.. لكنني كنت قد سبقته على كل حال..

باب المنزل.. أوسعه ركلًا وضربًا.. ولا إجابة..

- لا جدوى من كل هذا.. اسمع!.. هل معك مفتاح؟

مد يده إلى جيب (الصديري) الذي يرتديه واخرج مفتاحًا صغيرًا أولجه في قفل الباب فانفتح.. كان غير مغلق إلا باندفاع لسان كالون (اللاتش)..

ركضنا إلى الداخل باحثين عن (عماد) في كل ركن وكل غرفة:

- (عماد)!..

- (عماد بك)!

كانت أسطوانة (الجرامافون) تدور بلا انقطاع وقد تآكلت الإبرة تقريبًا إذ انتهت الأسطوانة منذ زمن.. الأسطوانة التي تحمل صورة الكلب الذي يصغي لـ

(جراموفون) آخر والمميزة لأسطوانات (صوت سيده)..

لقد كانت أسطوانة (طائر النار) لـ (فاجنر)!..

- (عماد بك)!!

لم نجده في أي مكان.. لكن مائدة الطعام كان عليها عشاء لم يؤكل بعد.. بالتأكيد هو عشاء لأنه أخف من أن يكون غداء وأكثر تنوعًا من أن يكون إفطارًا.. وكان الخبز غير طازج لكنه - بالتأكيد - غير متيبس.. أي: أن هذه الوجبة لم يمر عليها أكثر من عشر ساعات..

صعدت درجات قليلة إلى غرفة النوم التي جعل (عماد) مستواها أعلى قليلًا من باقي الحجرات.. وكان الفراش مرتبًا نظيفًا.. ولم

يفتني أن أرى أن هناك ثلاثة أصص ملأى بالـ (موكاسا) متناثرة في أركان الغرفة..
الحمام أيضًا يحوي أصيصًا من النبات..
كذا غرفة المكتب.. غرفة المكتب التي ينتظر فيها مجهر صغير أنيق الشكل عليه شريحة زجاجية إلى جوار (أباجورة) مضاءة لتوفر مصدرًا للضوء..
وجوار المجهر وجدت قلمًا وورقًا رسمت عليه قطاعات نباتية عدة من الساق والأوراق والجذر، مع أسهم كتبت عليها مصطلحات لاتينية لم أفهمها..
كان (عماد) يقوم بتشريح النبات ثم أعد العشاء.. هذا هو ما يمكن استخلاصه من كل هذه الاثار..

وجوار المجهر كان هناك مفكرة صغيرة مفتوحة وجوارها قلم حبر جاف.. وقد كتب في الصفحة المفتوحة بخط واضح أنيق:

- لقد أفلت النبات مني!

عبارة غريبة.. لا أدري لماذا ذكرتني بما يكتبه ربانو السفن في دفتر السفينة لحظة غرقها:

نحن نغرق.. فلتساعدنا السماء!

ما معنى أن النبات قد أفلت منه؟..

نظرت إلى البواب الواقف خلفي زائغ العينين غير فاهم لشيء مما يحدث وأهبت به أن يواصل التفتيش.. أو على الأقل أن يفتش الحديقة جيدًا..، ثم شرعت أقلب المفكرة بحثًا عن تفسيرات فلم أجد شيئًا..

مجرد مواعيد وملاحظات من نوع (البذور - عصام - معمل - تذكر) من التي يستحيل فهمهما إلا لمن كتبها..

نزلت إلى الحديقة وبدأت أفتشها مع البواب.. كان نبات (موكاسا) الذي هاجمني موجودًا في مكانه ساكنًا يتظاهر بالبراءة.. مددت يدي في قسوة إلى جذوره.. وبأعنف ما أستطيع انتزعتها ورميت به على الأرض في اشمئزاز فتلوى بضع ثوان ثم همد تمامًا..

لماذا فعلت ذلك؟.. لا أدري.. لكنه كان نذيرًا غامضًا بأن (عماد) لن يغضب على ما أصاب نباته بعد اليوم..

سمعت صوت البواب يناديني فهرعت إليه..

ها هي ذي الصوبة الزجاجية وقد وقف جوارها يشير إليها في توتر.. نظرت إلى كل هذه الفوضى.. الزجاج المهشم المتناثر على الأرض.. فتحة قطرها يقترب من المتر عبر جدار الصوبة.. وقد أطلت منها بعض النباتات التي بدأت بالفعل تلفظ أنفاسها لأنها لم تعتد الجو الخارجي..

قلبي يكاد يثب لفمي وأنا أدنو بحذر.. أقرب وجهي من الفتحة وأتشمم رائحة الرطوبة الخانقة بالداخل، وبخار الماء الذي نفثته مسام الأوراق يتكاثف على الزجاج وينحدر للأرض علىٍ شكل قطرات..

لكني لم أجد جثثًا ولم أجد أي نبات (موكاسا) بالداخل..

فقط كانت هناك فوضى عامة وأصص مقلوبة وحفرة في الأرض كأن هناك نباتًا قد اقتلع من هناك..

لكن الزجاج مهشم للخارج كأن شخصًا كان حبيسًا بالداخل ثم نجح في الخروج..

هل هو (عماد)؟.. هل سُجن بشكل أو آخر ثم نجح في تحطيم الزجاج وتحرير نفسه؟.. لا أدري حقًا..

❋ ❋ ❋

وحين ناداني البواب العجوز..

وحين سمعت نبرة صوته المذعورة وسعاله..

عندئذ أدركت أنه وجده..

* * *

كان (الروب دي شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب.. وجواره نظارة مهشمة.. وقد تناثرت هنا وهناك خصلات من الشعر الأشيب الناعم، وبقايا ممزقة من منامة كان لونها أزرق، وخفين تبعثرا هنا وهناك، وسلسلة مفاتيح مدفونة في التراب..

ولم يكن هناك (عماد) ولا نبات..

* * *



كان (الروب دى شامبر) على الأرض معجونًا بالدماء والتراب ..

وجواره نظارة مهشمة ..

رأيت هذا المشهد في كوابيسي مرارًا..

❋ ❋ ❋

هل تحب (فاجنر)؟!..

❋ ❋ ❋

زائد عن الحاجة!..

لقد صار (عماد) بالنسبة للنباتات زائدًا عن الحاجة لهذا قتله..

إن منطق النبات (البراغماتي) النفعي لا يتزحزح.. فأنا قد قمت بزراعة البذور في داري وفي قريتي، وبالتالي صار هناك

أكثر من أب لهذا النبات، كلهم عاكفون على بذر البذور ورعايتها..

لهذا - ولهذا فقط - صار (عماد) زائدًا عن الحاجة، والاستفادة المثلى منه هي التهامه...

لو كان هذا النبات رجل أعمال لغدا مليارديرًا منذ زمن.. ولو كان صحفيًا لغدا رئيس تحرير عشرات الصحف واسعة الانتشار.. ولو كان سياسيًا لحكم العالم في غضون شهور..

لكنه مجرد نبات..

ولأنه مجرد نبات يجب أن يدمر ويحرق في الحال..

* * *

كان العجوز مستندًا إلى شجرة يسعل باستمرار.. باستمرار، وصعوبة التنفس تتزايد، فأدركت أنه - ذلك الأحمق - أصيب بنوبة قلبية..

أجلسته على الأرض وأحضرت له كوبًا من الماء من داخل المنزل، مع قرصين من (النيتروجلسرين) يضع أحدهما تحت لسانه.. ثم بدأت أتفحص المكان حول ما تبقى من (عماد)..

قد يتهمني أحدكم بالقسوة لأنني لم أنهر ولم أبك بعد ما فقدت صديقًا مخلصًا نقيًا بهذه الطريقة الغادرة، لكنني أقول لكم أنني رأيت مصائب كثيرة في حياتي بحيث سئمت كل هذه الأشياء التي يفعلونها ويقولونها في تلك المواقف..

الدموع وعبارات الرثاء بلهاء ومبتذلة أكثر من اللازم ولا تضيف جديدًا.. إن الخدمة الوحيدة التي يحتاج إليها (عماد) الآن هي طلب الرحمة له.. وتدمير هذا النبات مع الاحتفاظ بعينة واحدة منه أرسلها هي والدراسات التي كتبها عنه إلى مجلة (بوتاني) العلمية الرصينة، مع اقتراح مهذب بتسمية هذا النبات الجديد (إيمادللا نيجرا) أو أي اسم قريب من اسم الشهيد الذي اكتشفه..

وهنا قطع على أفكاري خاطر غريب.. لماذا لا أجد أثرًا للنبات جوار (عماد)؟!

إن حالته لا تسمح له بالزحف بعيدًا عن النبات قطعًا.. وكان الواجب أن أجده بين

الأوراق الشوكية السوداء كما بدا ذلك الأرنب بعد التهامه...

ولكن ما معنى هذا؟.....

١- الصوبة تهشم زجاجها للخارج.

٢- يوجد بالصوبة أثر يوحى أن نباتًا قد أقتلع من جذوره..

٣- لا يوجد نبات جوار جثة (عماد)..

٤ - آخر كلمة كتبها (عماد) هي: "لقد أفلت النبات مني.."..

ألا يعني كل هذا شيئًا ما؟!..

❋ ❋ ❋

يا للكارثة!..

لقد فهمت!..

* * *

٩- عصر الـ (موكاسا)..

لم يكن نباتًا!

بالتأكيد لم يكن نباتًا..

صحيح أنه يتكاثر بالبذور.. وله ساق وأوراق وجذور، لكنه يخطط.. ويفكر.. ويتظاهر.. بل ويتنقل!.. نعم يتنقل!..

أكاد في هذه اللحظة أرى ما حدث بالضبط.. (عماد) يعد العشاء ويصغي إلى (فاجنر) مرتديًا (الروب دي شامبر) - (عماد) وليس (فاجنر) طبعًا - وإذا به يسمع صوت زجاج يتحطم فيهرع إلى الحديقة ليجد الصوبة مهشمة والنبات غير موجود بها..، يعود مفزوعًا إلى غرفة

المكتب ليخط هذه العبارة: "لقد أفلت النبات مني..".. ولم يكن بالطبع يعني أي شيء سوى ما قاله حرفيًا.. لا تتحمل العبارة أي معنى مجازي مثل أن النبات يتصرف بطريقة غير متوقعة أو أي شيء من هذا القبيل.. ثم أن (عماد) يهرع إلى الحديقة ليرى أين ذهب هذا الوغد..

لكن الـ (موكاسا) كان ينتظره في الظلام.. هذه المرة حرًا من قيوده حرًا من الجذور التي تقيده للأرض، وكانت المجزرة..

والأسوأ هو أن (عماد) لم يصدق حتى اللحظة الأخيرة أن نباته الحبيب يمكن أن يفعل معه كل هذا..

*   *   *

دخلت إلى (الفيللا) متجهًا إلى الدولاب باحثًا عن بكرات الأفلام التي تضمها المجموعة (كان المفتاح معي هذه المرة بعد أن وجدته في حاجيات المرحوم)..

وكانت هناك بطاقة ملصقة على كل بكرة تدل على محتوياتها..

(هامبورج).. (الأقصر).. (هالة) - بالتأكيد هذا الفيلم الأخير خاص جدًا - ثم (موكاسا ـ ١).. (موكاسا ـ ٢).. (موكاسا ـ ٣)..

أخرجت آلة العرض السينمائي وعبأت البكرة (موكاسا ـ ٣) عليها لأنها بالتأكيد تحوي آخر ما عرفه عن النبات.. يهمني

قطعًا أن أعرف ما أخفاه (عماد) علي ليلة أن عرض علي الفيلم الأول.. وفي الظلام بدأ الشعاع يتسرب إلى الحائط الأبيض.. كان الفيلم ملونًا هذه المرة..

وتبينت ملامح الصوبة الزجاجية بما فيها من نباتات عملاقة.. ثم رأيت نبات (موكاسا) في منتصف الكادر.. نباتًا عملاقًا يقارب طوله المترين..

ومرت دقائق دون أن يحدث شيء.. وفجأة بدأ النبات يتحرك.. يتلوى.. يرتجف..

لم أصدق ما أراه لكني واثق تمامًا من أنه حقيقي.. هو ذا النبات ينتزع نفسه من جذوره.. الجذور تخرج نفسها من التربة بكل براعة.. ثم يسقط النبات على جانبه

ويبدأ في الزحف - نعم الزحف - ببطء شديد على الأرض وكل أوراقه تتحرك.. تفتح وتغلق بشكل ميكانيكي مروع..
يدور في المكان دورة أو دورتين..
ثم ها هو ذا يعود إلى مكانه ببطء شديد.. تثبت الجذور نفسها في الأرض.. ثم يستقيم النبات على ساقه في تؤدة.. ويعود مجرد نبات بريء آخر!...
انتهى الفيلم..
ظللت أحدق في الجدار المضيء زائغ العينين شارد الذهن..
إذن كان (عماد) يعرف.. وأخفى ذلك عني..
والسؤال الآن هو: هل كل نباتات الـ (موكاسا) تفعل ذلك؟ أم أن هذا النبات الذي

تربى في الصوبة هو الوحيد القادر على ذلك؟.. أميل إلى القول إن النبات يحتاج إلى فترة لا بأس بها من النمو والنضج حتى يبدأ في (التقاط رزقه).. فلا ينتظر حتى يأتيه (النتروجين) بل يذهب هو للبحث عنه!

المشكلة أن هذا يجعله خطرًا جسيمًا.. فمن منا يشك في نبات مقتلع من جذوره وملقى على الأرض؟

وتخيلت ما سأقوله لرجال الشرطة..

- إن هناك نباتًا هاربًا مسعورًا.. يجب أن تجدوه قبل أن يفترس أحدًا!!

إنه لأمر مضحك.. ولكن شر البلية ما يضحك..

* * *

خرجت من المنزل لأجد البواب مرتكنًا إلى إحدى الأشجار ووجهه الأسمر كوجه جثة مضى على وفاتها ساعتان..

لم أر من المناسب قط أن أسأله عما إذا كان قد رأى نباتًا مسعورًا يتسلق السور، ولم يبد لي هذا محببًا..

ساعدته على النهوض.. وطلبت منه أن يعود لامرأته على حين أطلب رجال الشرطة بالهاتف، فأصر على أن يفعل ذلك بنفسه.. وأخذ يولول - ليس على (عماد) طبعًا - على المصير الأسود الذي ينتظره هو وامرأته بعد وفاة الـ (بك)، وعمن ستؤول له (الفيللا)..

وراح يتصور منظره وهو يتسول جوار المساجد من أجل شراء الدواء لها..

هكذا شرع (يعدد) كلما أدار رقمًا على القرص.. وهنا سمعنا الصرخة.. من بعيد لكنها واضحة..

تبادلنا النظرات لثوان.. وخطرت لنا نفس الفكرة في ذات اللحظة:

- زوجتك!

- إن الباب مفتوح.. لقد تركته مفتوحًا..

- يا لك من أحمق!.. فلنسرع..

طبعًا لا داعي للقول بأن العبارتين الأخيرتين قيلتا ونحن في منتصف الطريق إلى باب الحديقة، وبعد ثانية كنا داخل الحجرة الضيقة..

كان المشهد مروعًا..

العجوز مستلقية على الفراش تولول عاجزة عن الحركة في حين يلتف الذراع المشئوم حول ساقيها.. كانت شبه مشلولة بفعل المرض - الشلل الرعاش كما تبين لي على الفور - لهذا اكتفت بالهلع..

وعلى الأرض جوار الفراش المتآكل كان ذلك النبات المشئوم متمددًا بطول مترين أو يزيد.. وأوراقه السوداء الشوكية تنفتح وتنغلق في جشع..

- بسم الله الرحمن الرحيم!

صاح البواب في هلع، وبدا أن النوبة القلبية ستعاوده.. أما أنا فلم يكن عندي وقت لهذا الترف - ترف النوبات القلبية - لهذا هرعت إلى سكين كبير في ركن الغرفة، وعدت راكضًا إلى النبات

وأمسكت بالذراع المتلوي وحززته بعنف وقسوة..

لم ينزف شيئًا من الدماء - لحسن الحظ - لكن قطرات من سائل أعتقد أنه هو (الكورار) نفسه.. كان في مرحلة الحقن ولم يصل لمرحلة الامتصاص بعد..

وما أن انفصلت الأنسجة القاسية حتى التف الذراع حولي في هذه المرة.. أنا لا أعرف شعور من يسقط في قبضة ثعبان (البوا العاصرة) أو (الأصلة) لكنه بالتأكيد قريب من هذا..

سقطت على الأرض بين الأوراق السوداء المشئومة فشعرت بها تطبق على ثيابي وما بدا من جسدي، لكني هذه المرة

فريسة متيقظة لا مشلولة.. وبالتالي لست سهل الهضم أبدًا..

لكن.. كيف يمكن قتل هذا النبات المتعصب؟...

في البدء كان قتله سهلًا باقتلاع جذوره، أما وقد صار حرًا طليقًا فكيف يمكن قتله؟

صحت بالبواب في لهفة:

-(عبد الودود)!.. ساعدني على إخراج هذا الشيطان للخارج..

تحامل الرجل على نفسه وساعدني في حمل النبات المتلوي إلى خارج الغرفة وهو يبسمل ويحوقل واثقًا من أن كل هذا سلوك جان شرير..

ولم يفته أن يتأكد من أن المرأة لم تزل حية وتخلصت من الذراع المحيط بعنقها..

في الخارج ألقينا النبات على الأرض.. وصحت بالرجل:

- هلم.. هل لديك (كيروسين) هنا؟

- أكيد..

وعاد لي حاملًا زجاجة متسخة مسدودة بورقة مبرومة كأنها قطعة فلين، فبدأت أسكب منها على النبات المتشنج، ثم أشعلت قطعة الورق بقداحتي ورميتها على النبات، و..

فهاااام!..

اندلعت النيران فهمدت حركة الشيء...

بدأ يتفحم ثم يتحول إلى رماد ساخن.. المشهد الذي يذكرني بمصرع (مصاص الدماء) في نهايات أفلام الرعب..

وحين تلاشت اخر جذوة لهب، مددت بحذر يدي وسط الرماد..
والتقطت عشرة من البذور الذهبية الشبيهة بالمعدن..
لقد هلك الوغد، لكنه ترك بذوره ليزرعها أحمق مثلي - أو البواب – ليستمر الكابوس إلى الأبد..
كنا نلهث.. والعرق يبلل ما تحت إبطينا وياقات ثيابنا.. وكان ينتظر مني تفسيرًا لكل هذا، لكني لم أعطه له.. فقط همست بصوت مبحوح:
- يمكنك الآن أن تطلب الشرطة..

* * *



تحامل الرجل على نفسه وساعدني في حمل النبات المتلوى إلى

خارج الغرفة ..

لا جدوى.. جراحة فاشلة.. لقد ماتت المرحومة بعد ما ثقبنا (الأورطي)..

❋ ❋ ❋

أيًا ما كان موضوع هذا الكتاب، فأنا مستعد لمناقشته معكما فورًا..

❋ ❋ ❋

ولو أن النجوم لدي مال   نفت كفاي أكثرها انتقادًا

❋ ❋ ❋

هل تحب (فاجنر)؟

* * *

تصاعدت الأبخرة السامة - أبخرة السيانور - في حديقة (الفيللا) على حين بدأ المهندسون القادمون من وزارة الزراعة أقرب إلى كائنات المريخ منهم إلى البشر، بثيابهم المعزولة وأقنعة الغازات المحكمة وعلى ظهر كل منهم خزان ثقيل متصل بخرطوم ينثر المادة المهلكة، وكنا نحن واقفين على بعد كبير نرمق المشهد في فضول..

قال لي د. (صبحي) مدرس الصيدلة وهو يجفف عرقه:

- وهكذا ستتم عملية إبادة كاملة لهذا النبات.. ما دام يعتمد على مادة

(الهيموجلوبين) في حياته فإن (السيانور) سيؤدي الغرض تمامًا كما يفعل مع الحيوانات..

نظرت له في شرود.. وسألته مشعلًا سيجارتي الثالثة:

- هل بدأوا تطهير (كفر بدر) اليوم؟

- يقول وكيل الوزارة أنهم بدأوا.. تم إخلاء البيوت ثم رش الحقول بالمادة القاتلة...

- لن نتخلص من هذا التلوث قبل شهور..

- للأسف نحن مضطرون.. إن النبات لم يبد استجابة لمركبات (الفوسفور) العضوي ولا (السيفين)..

تساءلت وأنا أرمق الأبخرة المتصاعدة من بعيد:

- وهل ستموت البذور بنفس الطريقة؟
- غالبًا.. وعلى العموم سيقومون بنقعها بعد ذلك في حمض (النتريك) لمدة ثمان وأربعين ساعة..
- يا للسماء!...
قلتها وأنا أقذف بعقب اللفافة بعيدًا..
كل هذا المجهود للتخلص من الـ (موكاسا)!.. أي شيطان رجيم جاء به (عماد) إلى هذا العالم؟!.. كأن البشرية شفيت من السرطان والجوع والتلوث البيئي كي نقدم لها نباتًا لا يموت إلا بـ (السيانور)!..
دنا مني البواب النوبي العجوز وهو ينهنه متهانفًا للبكاء، فعانقته وربت على كتفه.. سمعته يسعل ويدمدم:

- هل ترى يا (بك) ما فعلوه بحديقة (الفيللا)؟.. ما كان (عماد بك) رحمه الله ليقبل بكل هذا..

كان - البائس - يشعر أن واجبه لم ينته بعد نحو سيده حتى بعد وفاة هذا الأخير.. ولقد أثار هذا الإخلاص مدامعي لكني تماسكت..

وهنا شعرت بشيء صلب في جيب جلباب الرجل.. فمددت يدي أتحسسه.. إنني أذكر هذا الملمس جيدًا..

لا شك في ذلك.. مددت إصبعين داخل الجيب وأخرجت بذرتين من البذور الذهبية المشئومة أمام عيني الرجل غير الفاهمتين!..

ستكون المهمة شاقة..

شاقة حقًا..

❋ ❋ ❋

١٠ - خاتمة..

كان حصار البذور مشكلة..

فكل إنسان بدا وكأنه يتحين الفرصة ليسرق بعضها أو يخفيها في جيبه، ولقد اضطررنا إلى تفتيش جيوب وحاجيات كل من تعامل مع هذا النبات.. وكانت النتيجة - غالبًا - إيجابية..

حتى أنا وجدتني أخفي عشر بذور في الدرج الذي أضع به مناديلي..

ووجد د. (صبحي) بذرتين في جوربه حين عاد لداره..

كنا نتصرف كمدمني المخدرات الذين تجد السموم في كل مكان من عالمهم..

ولست مبالغًا في هذا الوصف..
لقد صار الـ (موكاسا) وباءًا حقيقيًا.. وسيدًا على عشرات العبيد الذين لم يعرفوا ما حل بهم وبإرادتهم..
لكن الحصار - أزعم - كان محكمًا..
ولمدة شهور لم نسمع عن حادث هجوم واحد للنبات على إنسان.. ولم يبلغنا أحد بمشاهدة الأوراق السوداء المشئومة..
لهذا - ولأول مرة - أعلن مسئولو وزارة الزراعة أن نبات (الموكاسا) قد اختفى من الوجود، ذلك الاختفاء الذي لم يضايق أحدًا.
ومن لغو القول أن أكرر أن تفاصيل هذا الحادث ظلت سرية تمامًا، فلم يدر بها سوى حفنة من الرجال، وأن من علموا

طرفًا من القصة ظنوا الأمر يتعلق بحشرة ما أو وباء من أوبئة المزروعات..

كنا في ذروة الحرب النفسية مع (إسرائيل) في تلك الآونة.. وكنا نعرف تمامًا أن هذه القصة ستتضخم وتنتفش - بفعل الإشاعات - وسيعتقد رجل الشارع أن (الموكاسا) سلاح بيولوجي توصل إليه العلماء الإسرائيليون وأدخلوه إلى البلاد..

والواقع - أصارحك - أنني أسائل نفسي أحيانًا..

إن العالم الذي قدم البذور إلى (عماد) هو عالم أمريكي اسمه (ديفيد أوبريان).. إن (يهودية) الاسم لا تخفى على أحد، وأنا قد تعلمت من زمن ألا أثق بأجنبي يدعى

(ديفيد) أو (أبراهام) أو (ليفين) أو حتى (ساره)..
فهل الأمر كذلك؟
هل كان (أوبريان) يعرف حقيقة هذا النبات؟
هل هذا النبات وليد معالجة إشعاعية أو كيميائية تمت في أحد معامل الحرب البيولوجية؟.. لا أظن.. ولا أحسب أنهم وصلوا إلى هذا القدر من التقدم التكنولوجي..
الخلاصة أن التعتيم الإعلامي على الموضوع كان ضروريًا في تلك الحقبة الكئيبة من تاريخ البلاد..
لكن التعتيم الإعلامي لم يمنعني من أن أقوم بواجبي الأخير نحو (عماد) - أرقى

إنسان عرفته في حياتي - لهذا تعاونت مع اثنين من زملائه في الجامعة وقمنا بعمل ورقة علمية محكمة تبدأ بهذه السطور: إن لدينا من الأسباب ما يدفعنا للاعتقاد بوجود حلقة واصلة بين المملكتين الحيوانية والنباتية.....

وانتهت الورقة بجملة شديدة الأهمية عندي:

- وإننا لنقترح تسمية هذا النبات باسم (إيمادللا نيجرا)، والمقطع الأول نسبة لاسم مستكشفه الذي فقد حياته ثمنًا لاكتشافه، أما المقطع الثاني فيدل على لون أوراقه الأسود..

وأرسلنا الورقة - مع الأفلام والرسوم التخطيطية ونموذجًا حيًا صغيرًا - إلى

مجلة (بوتاني) عالمين أنها ستكون ضربة العصر.. ولقد نشرت المقالة ونالت إعجابًا علميًا هائلًا وأثارت تساؤلات عديدة، لكنها لم تصل للرأي العام لأن الجمهور أكثر سطحية من أن يقرأ هذه المجلات العلمية المتعمقة..

إنه نفس السبب الذي لأجله كتب (نيوتن) نظرياته باللاتينية التي يستحيل فهمهما على هواة القشور.. كان يريد أن يريح ويستريح فلا يقرأ نظرياته إلا من يستحقون قراءتها!..

❋ ❋ ❋

لقد مرت أعوام طوال على هذه القصة..

لكني ما زلت أجفل كلما شممت روائح معينة.. ومازلت أرى الأوراق السوداء في كل مكان.. وما زلت أشعر بشيء يمشي فوق عنقي كلما جلست إلى مكتبي لأكتب..

أؤمن أن كل هذه وساوس لكن الفكرة لا تبرح بالي..

ثمة شخص في مكان ما يحمل بذرة أو بذرتين، وهو ما زال يذكر كيفية زراعتها وينتظر الفرصة المناسبة عندئذ يدسها في التربة جوار جثة فأر أو عصفور ميت.. ثم تبدأ المأساة..

لا بد أن هذا الشخص موجود..

ومن يدري؟.. ربما كان أنا..

أمس ابتعت بعض أصص النباتات المملوءة بالتربة ونصف كيلوجرام من

اللحم المفروم لا أدري لماذا ولا ما الذي أنتويه بالضبط!..

أنا لا أعرف..

فهل تعرف أنت؟..

*** * ***

في القصة القادمة أستكمل معكم حكاية الكاهن الأخير.. رجل (النافاراي) الذي آويته في داري، فجلب الوبال على الجميع.. ستكون قصة مشوقة من (دراما المكان الواحد)، وستعرفون وقتها كيف أن العجوز (رفعت إسماعيل) لم ينته بعد...

و...

لكن هذه قصة أخرى.

د. / رفعت إسماعيل

(القاهرة - ١٩٩٣)

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة النبات

كلنا نحب النباتات ..
فهي مخلوقات جميلة هشة بريئة، والأهم أنها مسالمة .. لكن هذا النبات يختلف .. إنه يفكر .. يتحرك .. يخطط .. و يقتل! حقًا كلنا نحب النباتات .. فهي مخلوقات لا تؤذي، كلنا نحب النباتات .. لكننا سنكون حذرين حين ننام وهي معنا في غرفة واحدة!!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة النافاراي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

الهيموجلوبين: صبغ الدم الأحمر المسئول عن حمل الأكسجين ومنحه للأنسجة.

[←2]

يقال أن الراهب الروسي المخيف (راسبوتين) كان يدرب نفسه على تناول السموم عن طريق جرعات متدرجة، ولهذا فشلت كل محاولات قتله بالسم مما اضطر أعداءه إلى قتله رميًا بالرصاص.

[←3]

أرجو ألا تكونوا نسيتم أن (رضا) هو أخي وزوجته (نجاة)، و (رئيفة) هي أختي وزوجها (طلعت).